

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثالث والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثالث والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٠

* (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : فما شأنكم الخطير الذى جئتم من أجله .

(مُسَوَّمَةً) : مُعَلَّمة ، من السُّومة ـ بالضم ـ وهى العلامة ، أو مُرْسلة ـ من : أُسِيمت الإبلُ فى المرعى إذا : أُرْسلتْ .

(لِلْمُسْرِفِينَ) : للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور .

(آيَةً) : عَلامة دَالَّة على ما أصابهم مِنْ عذاب .

التفسير

٣١ ـ (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

قال إبراهيم ـ عليه السّلام ـ لضيوفه المُكرَمين لَمَّا عَلِم أَنَّهُم ملائكة وهم لا ينزلون إلا بإذن الله لأمر خطير ويفعلون ما يؤمرون : فما شأنكم العظيم الَّذِى أُرسلتم إليه غير البشارة بالغُلَام؟ وفيم جئتم ؟ .

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ـ (قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) :

قالت الملائكة لإبراهيم : إنا أُرسلنا مِنْ قِبَل الله إلى قوم مُفْرِطين فى العصيان ، وهم قوم لُوط ، لنُلْقى عليهم حجارة من طين لا يعلم كنهها إلَّا الله ، وهذه الحجارة مُسَوَّمة ، أى :مُعَلَّمَة بما

يدل على أنها ليست من طين أرضنا ، وقيل : مُسوَّمة ، أى : مُرسلة ، مِنْ : أُسِيمَتِ الإبلُ إذا أرسلت من (عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) أى : أنَّهَا مُعَدَّة فى علم الله للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور ، التَّاركين ما أحلّ الله لهم من الطَّيِّبات ،المُقبلين على ماحرّم الله من الخبائث ،حيث كانوا يأْتون الذُّكْران من العالمين مع كفرهم وشِرْكهم .

ووضع الظَّاهر موضع ضميرهم فى قوله ـ تعالى ـ : (لِلْمُسْرِفِينَ) ذمًّا لهم بالإسراف بعد ذمّهم بالإجرام وإشارة إلى علَّةِ الحكم .

٣٥ ، ٣٦ ـ (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) :

هذَا الكلام حكايةٌ من جهته ـ تعالى ـ لِمَا جرى على قوم لُوط ـ عليه السَّلَام ـ بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ من الكلام ، والفَاءُ مُفْصِحَةٌ عن جُمَل لمْ تُذْكَر اكتفاءً بذكرها فى مواضع أُخَرَ ، كَأَنَّهُ قِيل : فقاموا من عنده وجاءوا لُوطا فجرى بينهم وبينه ماجَرَى ، فَبَاشروا ما أُمِرُوا به فذلك قوله ـ تعالى ـ : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : فأخرجنا مَنْ كان فى قُرى قوم لُوط مِمَّن آمن بِلُوط ـ عليه السَّلَام ـ فما وجدنا فيها غير أهل بيت من المُسْلِمِين ،والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر عن مجاهد ـ لوط وابنتاه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جُبير أنَّهُ قال : كانوا ثلاثة عشر . «آلوسى» .

واحتجّ بهذه الآية من ذهب إلى رأى المعتزلة الذين لا يفرقون بين الإسلام والإيمان لأنَّه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ؛لأنَّ المعنى : فأَخرجنا مَن كان فيها مِن المؤمنين فلم يكن المُخْرَج إلَّا أهل بيت واحد . وبهذا الرأى أخذ بعض أهل السنة ومنهم البخارى. قال ابن كثير : وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين .وعندنا : أنَّ كُلَّ مُؤمن مُسْلم ولا ينعكس ، فاتَّفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال . اهـ : ابن كثير ص ٢٣٦ .

والوجدان فى قوله ـ تعالى ـ : (فَمَا وَجَدْنَا) معناه : العلم ـ على ما قاله الراغب ـ وذهب بعض الأَجِلَّةِ إلى أنَّهُ لا يُقَال :ما وجدت كذا إلَّا بعد الفحص والتَّفتيش ،وحُمِل عليه معنى الآية ،أى :

فأخرج ملائكتنا (مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فما وجد ملائكتنا فيها (غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) .

٣٧ ـ (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) :

أى :وتركنا فى القرى التى أهلكناها وهى قرى قوم لوط « وإضمارها بغير ذكر لشهرتها » ـ تركنا فيها ـ علامة دالّة على ما أصابهم من العذاب وما نزل بهم من العقاب ؛ ليكون ذلك عبرة بالغة وعظة نافعة للّذين من شأنهم أن يخافوا العذاب الأليم لسلامة فِطرتهم ورقّة قلوبهم ، وهم المؤمنون ، دُون مَنْ عَدَاهم مِنْ ذوى القُلُوب القاسية فإنّهمْ لايعتدّون بها ولايعتبرون بهذه الآيات ، والمراد بها تلك الأحجار الّتى أهلكوا بها ، وقيل :ماء مُنْتِن ،قال الشّهاب : كأنه بحيرة طبريّة .

(وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : بدليل واضح له سلطان على القلوب ، وهو ما ظهر على يديه من المعجزات .

(فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ) : فأعرض فرعون بِقُوَّته وسلطانه عن الإيمان ، ومنه قوله -تعالى- : « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » وستأتى فى الشرح معان أخرى .

(مُلِيمٌ) : آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

(الرِّيحَ الْعَقِيمَ) : الشَّدِيدة الَّتى لا خير فيها فقد دمرتهم .

(كَالرَّمِيمِ) : كالشَّيْءِ البَالى الهالك المُتَفَتِّت مِنْ عَظْم أو نبات أو غير ذلك .

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ) : فأهلكتهم الصَّيحة ، أو نار من السَّماء .

التفسير

٣٨- (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) :

وفى قصة مُوسى عظة وعبرة إذْ أرسلناه إلى فرعون مُؤَيَّدًا مِنَّا بسُلطان مُبين وهو ما أظهرناهُ على يده من مُعجزات باهرة وحجج واضحة ودلائل ظاهرة .

٣٩ - (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

أى : فازْوَرَّ فرعون وأعرض عن الإيمان بما جاء به موسى من الحقّ المبين استكبارًا وعنادًا -على أَنَّ رُكْنه جانب بدنه وعِطْفِه - والتَّولِّى به كناية عن الإعراض كِبْرًا وخُيَلاء وعُجْبًا ، وقيل : تولَّى بما كان يتقوَّى به من قومه وجنوده وملكه وسلطانه ، والرّكن يُسْتَعَار للقوّة وقال فرعون عن مُوسى : لا يخلو أمره فيما جاءنا به من أن يكون ساحرًا أو مجنوناً ، كأَنَّ فرعون جعل ما ظهر على يديه -عليه السَّلام- من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجنّ ، وتردّد فى أنَّه حصل باختياره فيكون سحرًا ، أو بغير اختياره فيكون جُنوناً .

وقال أبو عبيدة: (أو) بمعنى الواو؛ لأنَّ القرآن حكى عن اللَّعين «فِرْعَوْن» أنَّهُ قال «الأَمْرَين» قال عن مُوسى مرّة: «إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ»[1] وقال مرّة أُخرى: «إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ»[2] وهكذا كان يتلوّن تلوّن الحرباء.

٤٠ - (فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ):

فأخذنا فرعون ومَن اعتزّ بهم وتقوّى من جنوده وأعوانه فطرحناهم فى اليمّ غير مُقَدِّرِين لهم، ورميناهم فى البحر غير مُبَالِين بهم - فعلنا بهم ذلك - وفرعون مُرتكب مايلام عليه من الكفر والطُّغيان لتكذيبه بالرّسول وادِّعائه الأُلوهيّة، وشاركه فى ذلك جنوده فأُغرقوا معه، وفى الكلام من الدّلالة على غاية عظم شأن القدرة الربّانية ونهاية قماءة فرعون وقومه وذلتهم أمام قدرة الله.

٤١ - (وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ):

وفى قصة عاد وإهلاكهم عبرة وعظة إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم، وهى الشّديدة الّتى لا خير فيها، فهى لاتُلقح شيئاً - كما أخرجه جماعة عن ابن عبّاس وصَحَّحه الحاكم - وفى لفظ: هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر، كأنّه شبّه عدم تضمّن المنفعة بعقم المرأة.

وهذه الرّيح كانت «الدّبور» لما صحّ من قوله - صلى الله عليه وسلم -: «نُصِرت بالصَّبَا وأُهْلِكت عاد بالدّبور».

٤٢ - (مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ):

أى: ما تدع من شىء مرّت عليه هذه الريح إلّا صيّرته كالرّميم، أى: كالشّىء البالى المتفتّت من عظم أو نبات أو غير ذلك، فالرّميم مِن: رمّ الشىءُ، أى: بَلِى.

(١) سورة الشعراء، من الآية: ٣٤

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٧

وفسّره السّدى هنا بالتُّراب ،وفسّره ابن عيسى بالمُنْسَحِق الذى لا يُرَمّ ،أى :لا يُصْلح ، والشئ هنا عام مخصوص ،أى :ماتذر الريح مِنْ شئ أراد الله تَدْمِيره وإهْلَاكه مِنْ ناس أو ديار أو شجر أو غير ذلك إلّا جعلته كالرّميم ، رُوِى أنَّ الرّيح كانت تمرّ بالنَّاس فيهم الرّجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتُهلكه .

٤٣ ، ٤٤ - (وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ) :

وفى قصّة ثمود وإهلاكهم آيات ،أى :عظات وعبر . إذ قيل لهم : تمتّعوا فى دياركم إلى وقت معلوم وهو وقت انقضاء آجالهم وفناء أعمارهم ،فاستكبروا عن امتثال أمر ربّهم وتعالوا عن الاستجابة لما دعاهم إليه الرّسول فأهلكتهم الصّاعقة وهى نار من السّماء ،وقيل: صيحة منها فهلكوا وهم ينظرون إليها ويُعَايِنُون وقوعها بهم ؛ لأَنَّهَا كانت نهارا .

وقال مجاهد :(وَهُمْ يَنظُرُونَ) بمعنى ينتظرون ، أى :وهم ينتظرون الأخذ والعذاب ، وانتظار العذاب أشدّ من العذاب .

٤٥ - (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ) :

أى :فما تمكّن أهل ثمود من النُّهوض للهرب حين نزول العذاب بهم ووقوعه عليهم ، وما كانوا قادرين على الانتصار بدفع العذاب عنهم بغيرهم بعد أن عجزوا عن دفعه بأنفسهم .

٤٦ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

أى :وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين ؛ لأَنَّهُم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله لما كانوا فيه من الكفر والمعاصى .

(وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ الْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(بِأَيْيْدٍ) : بقوة .

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) : لقادرون ، من الوُسْع : بمعنى الطَّاقة والقدرة .

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا) : والأرض مهّدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها .

(زَوْجَيْنِ) : صِنْفَين مُزْدوجين ونوعين مختلفين .

(فَفِرُّوٓا إِلَى اللهِ) : فالجأُوا إليه وسارعوا إلى طاعته .

التفسير

٤٧ ، ٤٨ ـ (وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَٰهِدُونَ) :

يقول الله ـ تعالى ـ مُنَبِّهًا على خلق العالم العُلْوىّ والسُّفْلِىّ ليفكِّر النَّاس فى بديع صنعه وعظيم خلقه فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ـ يقول ـ : والسَّماء أحكمنا خلقها وجعلناها سقفاً محفوظاً بقوة عظيمة ، وإنَّا لقادرون على أكثر من هذا ، فقد وَسِعَت قُدْرَتُنَا كُلَّ شىء فضلا عن السَّماء ، أى : قد وسَّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد .

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ التَّوسعة مُستمرة على الزَّمن ، وهو ما أثبته العلم الحديث ، وعرف بنظرية التَّمدّد الَّتِى أصبحت حقيقة علميّة فى أوائل هذا القرن ، أشار إليها القرآن الَّذِى

أُنْزِلَ على النبيّ الأُمّي محمد ـ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم ـ منذ أربعة عشر قرناً (اهـ :المنتخب بتصرف) والأرض هَيَّأْنَاهَا وبسطناها لتستقروا عليها وتصلح لحياتكم فوقها ، فنعم المهيِّئون لها نحن ونعم الجاعلون لها كالمهاد .

٤٩ ـ (وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : ومن جميع المخلوقات خلقنا أزواجاً : سماء وأرضاً ، وليلا ونهارًا ، وشمساً وقمرًا ، وبرًّا وبحرًا وضياءً وظلاماً ، وإيماناً وكفرًا ، وموتاً وحياةً ، وشقاءً وسعادة ، وجنةً ونارًا ، حتى الحيوانات والنباتات خلقنا فى كل صنف منها الذكور والإناث ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أى : فعلنا ذلك كلَّهُ من بناء السّماء وفرش الأرض وخلق الأزواج كى تتذكَّروا فتعرفوا أنَّهُ ـ عزّ وجلّ ـ الرّبّ القادر الّذِى لا يُعْجِزه شىءٌ فتعملوا بطاعة الله ولاتعبدوا سواه ، وقيل : المراد بجميع ماذكر الاستدلال على قدرة الله على البعث والحشر والنشر ؛ لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة .

٥٠ ، ٥١ ـ (فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

ثم فرّع على قوله ـ تعالى ـ : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فقال : ففِرُّوا إلى الله ، أى : قُلْ لهم يا مُحَمَّد : فسارعوا إلى طاعته وثوابه وفروا من معصيته وعقابه ، وهو تمثيل للاعتصام به ـ سبحانه ـ واللُّجوء إليه والاعتماد فى الأمور عليه ، إنِّى لكم من عقابه المعَدّ لمن لَمْ يفرّ إليه ـ سبحانه ـ ولم يوحِّده نذير مبين ، بيَّنه الله ـ سبحانه ـ بالمعجزات ، أو مُبيِّن ما يجب أن يُحْذَر منه .

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ...) إلخ عطف على الأمر السّابق فى قوله ـ تعالى ـ : (فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ) وهو نهى صريح عن الإشراك بالله ، على نحو : وحدوه ولا تشركوا به .

والمعنى : ولا تشركوا به شيئاً إنِّى لكم من الله نذير مبين عاقبة الإشراك ، وكرّر قوله تعالى : (إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) فى الآيتين السابقتين لاتّصال الأوّل بالأمر والثّانى بالنّهى والغرض من ذلك كلِّه الحثُّ على التّوحيد والمبالغة فى النّصيحة والتّأكيد ، وعلل لذلك

الآلوسيّ فقال : المُنْسَاق إلى الذهن – على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة – أنه تعالى أمر بها أوّلا وتوَعّدَ تاركها بالوعيد المعروف له فى الشّرع وهو العذاب دون خُلُود ، ونَهَى – جَلَّ شأْنه – ثانياً أَنْ يُشْرَكَ بعبادته ، وتَوَعّدَ المُشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلُود ، فى النار ، وعلى هذا يكون الوعيدان مُختلفَين مُتَغايرَين ، وتكون الآية فى تقديم الأَمر على النَّهى فيها نظير قوله – تعالى – : « فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[١] وقوله : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً »[٢] .

(كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(طَاغُونَ) : مُتَجاوزون الحدّ فى الكفر .

(بِمَلُومٍ) : بفاعل مايلام عليه .

(١) سورة الكهف ، من الآية : ١١٠

(٢) النساء ، من الآية : ٣٦

(لِيَعْبُدُونِ) : ليخضعوا لى ويتذللوا ، أو ليعرفونى .

(الْمَتِينُ) : شديد القوّة .

(ذَنُوباً)[1] : نصيباً من العذاب .

(فَوَيْلٌ) : فهلاك ، أو حسرة ، أو شِدّة عذاب .

التفسير

٥٢ ـ (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مُسَلّياً لنبيّه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ : مثل هذا الشأن كان شأن الأُمم السّابقة مع رسلهم : فكما قال لك هؤلاء المشركون من أهل مكّة قال مثله المُشركون الأوّلونَ لرسلهم ، فهذه شِنْشِنَةُ المكَذّبين وتلك سِمَةُ الكافِرين .

وفى البحر : (أو) للتفصيل ، أى : قال بعضهم : هو ساحر ، وقال بعض : هو مجنون ، وقال بعض : هو ساحر ومجنون ، فجمع القائلون فى الضمير ، ودَلّت (أو) على التفصيل .

واستشكلت الآية بأن قوله ـ تعالى ـ : (إِلَّا قَالُوا) يدلّ على أنّ الّذين من قبلهم كُلَّهُم كَذَّبوا مع أنّهُ ما مِنْ رسول إلّا آمن به قوم ، وأجاب الإمام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط ؛ لأنه الأوفق بغرض التّسْلية .

٥٣ ـ (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

المعنى : أتَواصَى الأوّلون والآخرون بهذا القول ؟ أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتّى قالوه جميعاً مُتّفقين عليه ؟

وهؤلاء وأولئك لم يتواصوا به فى الحقيقة ؛ لأنّهُمْ لم يلتقوا فى زمن واحد بل هم قوم طُغاة مُتَجاوزون للحدّ خارجون عن طاعة الله تشابهت قلوبهم . فقال مُتَأَخِّرُهم كما قال مُتَقَدِّمهم ، جمعهم المقصد الواحد وتلاقوا فى الطّعن على الرّسل ، والحامل لهم على هذا القول هو الطغيان والعناد والتّمرّد والتّكذيب لرسالات السّماء .

---

(١) أصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهرى : لا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وتذكر وتؤنث ، وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقا شراً كان النصيب أو خيرا ، وفى الكشاف : هذا تمثيل ، أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب (١ هـ : آلوسى ص ٢٤) .

والضمير فى (بِهِ) للقول السابق ، ومقصود الاستفهام فى (أَتَوَاصَوْا بِهِ) التَّعجيب من إجماعهم على هذا القول الكاذب .

٥٤ ــ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) :

أى : فأعرض ــ يامُحَمَّدــ عن جدال هؤُلاءِ المُعَانِدِين فقد كَرَّرت عليهم الدّعوة ولم تأْلُ جهدًا فى البيان فلم يستجيبوا ، وعرفت منهم العناد واللَّجاج فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بَلَّغت الرِّسالة وأديت الأَمانة وبذلت مجهودك فى التبليغ والدّعوة ، وما أَنت بملوم على عدم استجابتهم إنْ عَلَيْكَ إِلَّا البلاغ ، وإِنَّمَا أَنت منذر . وقد فعلت .

٥٥ ــ (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) :

أَخرج ابن جرير وابن أَبى حاتم والبيهقىّ فى الشُّعَب وجماعة من طريق مجاهد عن علىّ ــ كرّم الله وجهه ــ قال : لمّا نزلت (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) لم يبق منّا أَحد إِلَّا أَيقن بالهلكة إذ أُمِرَ النبىّ ــ صلَّى الله عليه وسلم ــ أن يتولّى عنّا ، فنزلت (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) فطابت أنفسنا .

وعن قتادة : أَنّهم ظنّوا أَنَّ الوحى قد انقطع وأَن العذاب قد حضر فأَنزل الله (وَذَكِّرْ) الخ ، والمعنى : دُمْ على التّذكير والموعظة ولاتَدَعْ ذلك : فالأَمر بالتذكير للدّوام عليه ، فإِنَّ الذكرى تفيد وتُجْدِى مع الَّذين قدّر الله هدايتهم وعلم أَنَّهُمْ سيدخلون فى ساحة الإِيمان لاختيارهم ذلك ، أَو مع المؤمنين بالفعل : فإنها تزيدهم بصيرة بالدّين وقوّة فى اليقين .

٥٦ ــ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) :

استئناف مؤكِّد للأَمر الَّذِى قبله مُقَرِّر لمضمونِ تعليله ؛ فإِنَّ خلقهم للعبادة مما يدعوه ــ صَلَّى الله عليه وسلَّم ــ إلى تذكيرهم ، ويُوجب عليهم التَّذكُّر والاتعاظ ، ولعل تقديم الجنّ فى الذكر لتقدّم خلقهم على خلق الإنس فى الوجود ، ولم يذكر الملائكة لاستغنائهم عن التذكير والموعظةِ ؛ لأَنَّهُمْ عباد مُكرمون ، لايعصون الله ما أَمرهم ويفعلون ما يُؤمرون .

والمعنى : وما خلقت الجنّ والإنس لشىء يعود علىّ بالنفع ،وإنّما خلقتهم لتكون غايتهم العبادة (والعبادة غاية التّذلُّل) أى :خلقتهم مهيئين صالحين للعبادة حيث رُكِّبتْ فيهم عقولًا وجعلت لهم حواس يدركون بها الطاعة والمعصية حتى لايكون للعصاة حجة على الله .

وقال ابن جريج ومجاهد :(إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أى : ليعرفونى ، وهو مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب ، ولَعَلَّ السِّرَّ فيه : التّنبيه على أنّ المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ، قيل :وهو حسن ؛لأنه لو لم يخلقهم-عزّ وجلّ- لم يُعْرَف وجوده وتوحيده-سبحانه وتعالى-وهذا إشارة إلى ما صحّحوه عن رسول الله فيما رواه عن ربِّه : « كنت كنزًا مَخْفِيًا فأَحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأُعْرَفَ » .

قال الآلوسىّ : والّذِى ينساق إليه الذّهن : أنّ الحصر الوارد فى الآية حصر إضافىّ ،أى : خلقهم للعبادة دون ضِدّها أو دون طلب الرّزق والإطعام ؛أخذا من تعقيب ذلك بقوله تعالى : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) .

٥٧ - (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) :

هذه الآية الكريمة لبيان أنّ شأنه-تعالى-مع عباده ليس كشأن السّادة مع عبيدهم؛ لأنهم إنّما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم أو للقيام على خدمتهم ورعايتهم ففيها نفى أن يكون ملكه إيّاهم لذلك ،فكأنه-سبحانه وتعالى-قال : ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين ملّاك العبيد بعبيدهم ، وما أريد منهم تحصيل رزق ؛فأنا الرزاق الغنى عن العالمين وما أُريد أن يطعمونى؛فأنا أُطْعِم ولا أُطْعَم ،غنى عنهم وعن مُرافقتهم ،فَلْيشتغلوا بما ينفعهم ويُسعدهم وما خُلِقوا لأَجله مِنْ عبادتى وطاعتى والخضوع لى .

وفى الآية الكريمة لطائف :

الأُولى : أنّه-سبحانه وتعالى-كرر نفى الإرادتين ؛ لأنّ السيد قد يطلب من العبد التّكسّب له وهو طلب الرِّزق وقد لا يطلب ؛لأنّه غنىّ ،ولكن يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطّعام ، فنفى الإرادة الأُولى لا يستلزم نفى الإرادة الثّانية ؛ فكرر النّفى على معنى لا أريد هذا ولا أُريد ذلك .

الثانية : أنَّ ترتيب النَّفيين كما تضمَّنه النظم الجليل من باب التَّرق فى بيان غناه -عزَّ وجلَّ -فكأنَّهُ قال- سبحانه - : لَا أُريد منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك من تقديم الطَّعَام .

الثالثة : أنَّهُ-سبحانه وتعالى-قال : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ) دون ما أُريد منهم أن يرزقون ؛ لأَن المقصود عين الرزق لا الفعل .

وقال-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) دون : وما أُريد من طعام ؛لأَن المقصود نفى الفعل نفسه - وهو تقديم الطعام - والمراد أن الله-تعالى-غنى عن أن يقدم عباده له رزقاً أَو يقوموا على خلمته .

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) :

أى : إن الله هو الرَّزَّاق الَّذِى يرزق جميع خلقه - لاغيره سبحانه - وهو ذو القدرة شديد القُّوة لا يعجز عن شىء ، والجملة تعليل لنفى الإرادة فيما تقدّم فى قوله-تعالى- : (مَآ أُرِيدُ مِنهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) قال الإمام : كونه-تعالى-هو الرَّزَّاق ناظر إلى عدم طلب الرزق ؛لأَنَّ من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً وكونه (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) ؛لأَن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له ، فكأنَّه قِيل : لا أُريد منهم من رزق ؛لأَنِّى أنا الرَّزَّاق ،وما أُريد منهم من عمل كالإطعام ؛ لأَنِّى قوى متين .

وكان الظَّاهر أن يأْتى السياق الكريم (إِنِّى أَنَا الرَّزَّاقُ) كما جاء فى قراءة له-صلى الله عليه وسلم- لكن التفت إلى التصريح بالاسم الجليل لبعث الهيبة فى النفوس وأنه هو الرازق وحده دون سواه .

٥٩ - (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ) :

أى :إذا ثبت أنَّ الله-تعالى-ما خلق الجنَّ والإنس إلا ليعبدوه وأنَّه سبحانه مايُريد منهم من رزق إلى آخر ما تقدَّم ، فإنَّ للَّذين ظلموا أَنفسهم باشتغالهم بغير ما خُلِقوا له من العبادة

وإشراكهم بالله ـ عزّ وجلّ ـ وتكذيبهم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم أهل مكّة وأحزابهم من الكُفَّار قد أعدّ الله لهؤلاء نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأُمم السَّابقة ، وعن قتادة : سجْلاً[1] من العذاب مثل سَجْل أصحابهم ، فلا يطلبوا مِنِّى أن أعجل فى الإتيان بالعذاب قبل أوانه ، فهو لاحق بهم لامحالة .

٦٠ ـ (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى :فهلاك وعذاب شديد للّذين كفروا من يومهم الّذى يُوعدونه لما ينالهم فيه من الشّدائد والأهوال وما يلاقونه فيه من عذاب وعقاب ، وفى الآية بعض اللطائف :

١ ـ وضع الموصول موضع الضميرفجاء النَّظم (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) بدل فَوَيْلٌ لهم ؛ تسجيلا عليهم بما فى حَيِّز الصِّلة من الكفر ، وإشعارا بعلّة الحكم .

٢ ـ الفاءُ فى قوله : (فَوَيْلٌ) لترتيب ثبوت الويل لهم على أنّ لهم عذاباً عظيماً .

٣ ـ المراد بذلك اليوم ، قيل : يوم بدر ، ورُجِّح بأنّه الأوفق لما قبله مِنْ حيث إنّه ذنوب من العذاب الدُّنيوىّ ، وقيل : يوم القيامة ، ورُجِّح بأنّه الأنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية : والله أعلم .

---

(١) السجل : الدلو المليئة (المختار) .

تفسير سورة الطور

هذه السورة مكيّة كما رُوِى عن ابن عبّاس وابن الزبير-رضى الله عنهم-ولم نقف على استثناء شىء منها، وهى تسع وأربعون آية .

ومناسبة أوّلها لآخر ما قبلها اشتمال كُلٍّ منهما على الوعيد .

وقال الجلال السّيوطىّ : وجه وضعها بعد الذّاريات تشابههما فى المطلع والمقطع ، فإنّ فى مطلع كلٍّ منهما صفة حال المتّقين ،وفى مقطع كلٍّ منهما صفة حال الكفّار ،ولا يخفى ما بين السّورتين الكريمتين من الاشتراك فى غير ذلك :كالدّعوة إلى وحدانيّة الله وترك الشّرك ، وهو المقصد الأوّل من مقاصد القرآن ، بل من مقاصد جميع الأديان .

مقاصد السورة :

يقسم الله-تعالى-فى أوّل سورة الطّور بخمسة أشياء لها شأن عظيم على وقوع العذاب يوم القيامة بالمُكذّبين ، ثم تمضى آيات السّورة مُبيّنة بعض ألوانه وضروبه ،وبعض التّغييرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تقع فى ذلك اليوم (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) ثم تنتقل إلى ذِكْرِ ما أعدّه الله للمتّقين من جنّات ونعيم وما يتلذّذون به ويلقونه من صنوف التّكريم ، حيث يُلْحِق اللهُ بهم ذريّتهم المؤمنة ويرفعهم إلى درجتهم لتقرّ بذلك عيونهم ويتمّ سرورهم .

ثم تدعو الآيات رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إلى المُدَاومة على التّذكير ،فهذه رسالته ،وهو-بفضل ما أنعم الله به عليه من النّبوة ورجاحةِ العقل-ليس بكاهن ولا مجنون ولا شاعر ، كما تدعوه إلى عدم الالتفات إلى ما يتقوّله عليه المتقوّلون ،وعدم المبالاة بما يصفون به القرآن الّذى عجزوا عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ثم تأخذ الآيات فى توبيخ الكافرين والمُشركين وتقبيح آرائهم الضّالّة ،وتَسْفِيه مُعتقداتهم الفاسدة ، مُظْهِرة ضلالهم

مُغْلنة سوءَ تقديرهم ، آمرة الرّسولَ بأَنْ يَدَعَهم غير مُكترث بهم حتى يلاقوا يومهم الّذى فيه يُصعقون ، يوم لايُغنى عنهم مكرهم شيئاً من العذاب ولاهم يُنصرون ، فإنَّ للّذين كفروا عذاباً فى الآخرة غير العذاب الّذى يُصيبهم فى الدّنيا ، ولكنّ أكثرهم لايعلمون .

وتُختم السّورة بأمر الرّسول بالصّبر لحكم ربّه ؛ فهو فى عنايته وكلاءته ، وبالتّسبيح بحمده (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾
يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ
إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا
أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(الطُّورِ) : جبل بسيناء .

(كِتَابٍ مَّسْطُورٍ) : مكتوب على وجه الانتظام .

(رَقٍّ): ما يُكْتب فيه جلداً أو غيرهُ .

(مَنشُورٍ): مبسوط ظاهر .

(الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ): هو بيت فى السّماء السّابعة اسمه الضُّراح ، وقيل : الكعبة .

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) : السّماء .

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ): المُوقَد أو المملوء ناراً يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ): لنازل وكائن على شِدّة .

(تَمُورُ): تضطرب ، وبه قال ابن عبّاس ، أو تدور كالرّحى ، وبه قال مجاهد .

(فِى خَوْضٍ[1]): فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب .

(يُدَعُّونَ): يُدْفَعُون بعُنف وشِدّة .

(اصْلَوْهَا): ادخلوها وقاسوا حرّها وشدائدها .

التفسير

يُقسم الله -تعالى- بمخلوقاته الدّالة على قدرته العظيمة إنَّ عذابه لواقع بأعدائه لا محالة وإنَّهُ لا دافع له عنهم .

١ - (وَالطُّورِ) :

أى :ومن جملة ما يقسم الله به الطور ،وهو الجبل الّذى يكون فيه أشجار ،مثل الجبل الّذى كلّم الله موسى عنده ،فإن لم يكن فيه شجر لا يُسمّى طورًا وإنّما يقال له جبل ،والمراد به هنا جبل سيناء ويُسَمّى طور سيناء .

---

(١) أصل الخوض: المشى فى الماء، ثم تجوز فيه عن الشروع فى كل شىء،وغلب فى الخوض فى الباطل،قال-تعالى-: (وخضتم كالذى خاضوا) سورة التوبة من الآية ٦٩ .

٢ ـ (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ) :

ويقسم الله بكتاب مسطور ، أى : مكتوب على وجه الانتظام ؛ فإنّ السّطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ما قاله الفرّاء : الكتاب الّذى تكتب فيه الأعمال ويُعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو شماله ، وهو المذكور فى قوله ـ تعالى ـ : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُورًا »(١) وقيل : هو اللّوح المحفوظ ، وقيل : هو القرآن وغيره من الكتب السّماوية المنزّلة المكتوبة فى صحف مُيَسّرة للقراءة يقرؤها الناس جهارًا ولهذا قال : (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) .

٣ ـ (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) :

ويقسم ـ سبحانه ـ وتعالى بالرّق المنشور ، والرّق : ما يكتب فيه جلدا أو غيره ، ونشره : بسطه وظهوره للناس يرجعون إليه ويهتدون بهديه ويقرأونه بسهولة ويسر .

وقيل : وصفه بالنّشر والظّهور للإشارة إلى صحّة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جُعِلَ مُعَرَّضاً لنظر كل ناظر مع الأمن عليه من الاعتراض لسلامته .

٤ ـ (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) :

ويقسم الله ـ تعالى ـ بالبيت المعمور ، قال ابن كثير : ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم ـ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته للسّماء السّابعة : « ثُمّ رُفِعَ بِى إلَى البَيْتِ المعمور وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه » : فهو فى السّماء يتعبّد فيه الملائكة ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، وقال الحسن : هو الكعبة وعمرانها بالمُجاورين عندها والحجّاج إليها .

٥ ـ (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) :

ويُقسم الله ـ تعالى ـ بالسقف المرفوع وهو السّماء كما رواه جماعة وصحّحه الحاكم عن على ـ كرم الله وجهه ـ وبه قال سفيان وتلا قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ »(٢) .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٣ . (٢) الأنبياء ، الآية : ٣٢ .

وعن ابن عبّاس : هو العرش ، وهو سقف الجنّة ، أو سقف لجميع المخلوقات .

٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) :

ويُقسم الله بالبحر المسجور ، والجمهور على أنّ المراد به بحر الدّنيا ،وبأن المسجور بمعنى الموقد نارا قال - تعالى - : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »[1] أى : أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف :رواه سعيد بن المسيّب عن علىّ - كرّم الله وجهه - وقيل المسجور : المملوء .

والواو الأُولى فى قوله - تعالى - : (وَالطُّورِ) للقسم ،وما بعدها للعطف كما قال أبو حيان ، والجملة المقسم عليها قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) .

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) :

هذا هو المقسم عليه بما سبق ،أى : إنّ عذاب ربّكَ الّذِى تَوَعّد به الكافرين لكائن لامحالة على شدة ،كأنّهُ مهيّأ ومعدّ فى مكان مرتفع فيقع وينزل على من يحلّ به من مستحقّيه من الكُفّار والمكذّبين ، وفى إضافة العذاب إلى لفظ الرّب مع إضافة الرّب إلى ضميره - عليه الصّلاة والسّلام - أمان له - صلّى الله عليه وسلم - وإشارة إلى أنّ العذاب واقع بمن كذّبه .

٨ - (مَالَهُ مِن دَافِعٍ) :

عن جعفر بن زيد العبدىّ قال : خرج عمر يَعُسُّ[2] فى المدينة ذات ليلة فمرّ برجل من المسلمين فوافقه قائماً يُصلّى ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ (وَالطُّورِ) حتّى بلغ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّالَهُ مِن دَافِعٍ) قال : قسم - وربّ الكعبة - حقّ ، فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط فمكث مليّا ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لايدرون ما مرضه - رضى الله عنه - .

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جبير بن مطعم قال :

قدمت المدينة على رسول الله لأُكلّمه فى أسارى بدر ، فدُفِعْت إليه وهو يُصلّى بأصحابه صلاة المغرب ،فسمعته يقرأ : (والطُّورِ) إلى قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّالَهُ

(١) سورة التكوير ، الآية : ٦ . (٢) أى : يطوف بالليل ، وهو من باب رد : مختار الصحاح .

مِن دَافِعٍ) فكأنّمَا صدع قلبي ، وفى رواية فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وماكنت أظنّ أن أقوم من مقامى حتّى يقع بى العذاب . والمعنى : ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك .

٩ ، ١٠ ـ (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) :

يحكى القرآن بعض التّغيرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تحدث فى يوم القيامة فيقول : (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا) ويوم : ظرف للعذاب الواقع الّذى ليس له دافع أى : يقع ذلك العذاب ويحدث يوم تضطرب السّماء اضطراباً شديدًا ، وتدور كالرّحى ويموج بعضها فى بعض ، ولمّا ذكر من مشاهد يوم القيامة ما يحدث للسّماء ذكر مايحدث للأرض فقال : (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) أى : وتنتقل الجبال مِنْ مَقَارِّها وتتحرك تحركاً ظاهرًا ، وتذهب فتصير هباءً منبثاً وتُنْسَفُ نسفاً ، والإتيان بالمصدرين فى (مَوْرًا وَسَيْرًا) للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة والأعراف المألوفة ؛ لأن ذلك من أحوال يوم القيامة ،أى : تمور السّماء مورًا عجيباً ،وتسير الجبال سيرًا غريباً لايدرك كنههما .

١١ ، ١٢ ـ (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) :

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى :إذا وقع ذلك ،أو كان الأمر كما ذكر فويل فى ذلك اليوم للمُكذّبين بالحقّ من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم .

(الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) أى : الذين هم فى أباطيلهم وأكاذيبهم يلهون ويعبثون ، وغلب الخوض فى الاندفاع فى الباطل والكذب .

١٣ ، ١٤ ـ (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) أى : يوم يُدْفعون إلى جهنّم دفعاً عنيفاً بأن تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمع نَوَاصِيهم إلى أقْدَامِهم فيُدفَعُون إلى النّار دفعاً على وجوههم .

(هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) أى :وتقول لهم الزّبانية -تقريعاً وتوبيخاً- :هذه النار التى كنتم بها تكذّبون فى الدُّنْيَا ، ومثلها فى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى النّاطق بها .

١٥ - (أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) :

استفهام قصد به التقريع والتهكم بهم ، كأنه قيل : كنتم تقولون للوحى الّذِى أنذركم: هذا سحر ، أفهذا الّذِى تشاهدونه من العذاب فى النّار سحر أيضاً ؟ أم أنتم عمى عن المخبربه كما كنتم فى الدنيا عمياً عن الخير ؟ .

١٦ - (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى :ادخلوا النار وقاسوا شدائدها وذوقوا حرّها ، فافعلوا ما شئتم من الصّبر وعدمه وسواء أصبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها والأمران (الصّبر وعدمه) سواء عليكم فى عدم النّفع ، إذ كلّ لايدفع العذاب ولا يُخفّفه وإنّما تُلاقون اليوم فى الآخرة جزاء ما كنتُمْ تعملون فى الدُّنيا .

وقوله-تعالى- :(إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليل للاستواء، فإن الجزاء لمّا كان مُحتّم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه - سبحانه وتعالى - إيّاه بمقتضى عدله « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] كان الصّبر وعدمه مُستويين فى عدم النفع .

ووجّه الزّمخشرىّ كَوْنَ قوله-تعالى- : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليلا للاستواء فقال : لأنّ الصّبر يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يُجازَى عليه الصّابر جزاء الخير ، فأمّا الصّبر على العذاب - الّذِى هو الجزاء - ولا عاقبة له ولا منفعة فيه ، فلا مزيّة له على الجزع .

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩ .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(فَاكِهِينَ) : متلذِّذين ناعمين .

(مَصْفُوفَة) : موصول بعضها ببعض باستواء حتى يصير صفا .

(وَزَوَّجْنَاهُمْ) : وقرنَّاهم .

(بِحُورٍ) : حُورٍ : جمع حوراء ، من الحَوَر : وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بيِّنة الحَوَر .

(عِينٍ) : جمع عيناء ، وهى المرأة واسعة العين ، أى : وقرنَّاهم بنساء واسعات العيون حسانها .

التفسير

١٧ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) :

شُروع فى ذكر حال المؤمنين وما أُعدّ لهم من نعيم مقيم بعد ذكر حال الكفَّار وما أُعدّ لهم من عذاب أليم كما هو نَسَق القرآن وطريقته فى التَّرغيب والتَّرهيب .

والمعنى : إنَّ المتقين المطيعين لله العاملين بشرعه الَّذين جعلوا لهم بعقيدتهم وسلوكهم وقاية من النَّار ، فى جنَّات فسيحات لا يحاط وصفها ونعيم عظيم لايقادر قدره ، والتنوين فى الموضعين (فِى جَنَّاتٍ ، وَنَعِيمٍ) للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى : نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم ، ويجوز أن تكون الآية من جملة القول للكفَّار إذ ذاك زيادة فى غمِّهم وحزنهم وتكديرهم .

١٨ - (فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) :

أى : مُتَنَعِّمين مُتَلَذِّذين بما أعطاهم ربهم من أنواع الإحسان وَالنِّعيم وبما منحهم من أصناف الملاذِّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ، وقد نجّاهم الله من عذاب النّار وتلك نعمة مستقلّة بذاتها مع ما أُضيف إليها من نعمة دخول الجنة الّتى فيها من النّعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وإظهار لفظ الرّبّ فى موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم فى قوله-تعالى- : (رَبُّهُمْ) للتّشريف والتعليل .

١٩ - (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : ويقال لهم : كلوا واشربوا أكلا وشرباً هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً لاتنغيص فيه ، ولا يلحقكم فيه مشقّة ولا يُعقِب وَخَامة ، جزاء ما كنتم تعملون فى الدُّنيا من عمل صالح .

٢٠ - (مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) :

أى : متكئين على سرر مجعولة على صف وخط مستقيم مع تقابل وجوه بعضها إلى بعض لتعدّد الصفوف كما قال-تعالى- : « عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ [1] » وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين . قال الرّاغب : لم يجىء فى القرآن : زوجناهم حوراً . كما يقال زوجته امرأة . تنبيها على أنّ ذلك لايكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفَّراء : تزوجت بامرأة : لغة (أزد شنوءة) .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾)

(١) سورة الصافات ، الآية : ٤٤ .

المفردات :

(وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ) : وما نقصنا الآباء بسبب إلحاق الأبناء بهم .

والفعل (أَلَت) من باب : ضَرَبَ ، وعَلِمَ ، وبهما قرئ .

(رَهِينٌ) : مرهون عند الله بعمله .

(يَتَنَازَعُونَ) : يتجاذبون ويتعاورون ، وقيل : التنازع مجاز عن التعاطى .

(كَأْساً) : [1] إناء به خمر ، والكأس مؤنث سماعى كالخمر .

(لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :لا كلام ساقط أثناء شربها ، ولا فعل يستوجب الإثم ، وقال مجاهد : لا يستبُّون ولا يؤثِّمون .

التفسير

٢١- (وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) :

كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنَّة .

والمعنى :والَّذين آمنوا واستحقُّوا درجات عالية ، واتَّبعتهم ذرِّيتهم بإيمان ولم يبلغوا درجات الآباء ، ألحقنا بهم ذرِّيَّتهم فى الدَّرجة ، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلا عليهم وعلى آبائهم ، ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من ثواب عملهم شيئاً بأن أعطينا الأبناء بعض مثوباتهم ، وإنما رفعنا منزلة الأبناء إلى منزلة الآباء بمحض التفضل والإحسان ، ولما أخبر -سبحانه- عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذّرية ، إلى منزلة الآباء من غير عمل منهم يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل ،وهو أنَّهُ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، فلا يحمل الآباءُ شيئاً من أخطاء ذرِّيتِهم ؛لأنَّ كلَّ إنسان مرهون بعمله لايؤخذ به غيره ، فقال : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) .

---

(١) قال الراغب: الكأس : الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد بانفراده كأسا ، ولكن المشهور أنها لا تسمى كأسا إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء (آلوسى) .

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ الكسب بمنزلة الدَّيْن ،ونفس العبد بمنزلة الرَّهن ، ولايفكّ الرَّهن مالم يؤدّ الدَّيْن ، فإن كان العمل صالحاً فقد أدّى ؛لأنَّ العمل الصَّالح يقبله ربُّه- سبحانه وتعالى - ويصعد إليه-عزّ وجلّ - وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه -سبحانه - غير الطيِّب ، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عبّاس قال : « إنَّ الله ليرفع ذريَّة المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقرَّ بهم عينه ، ثم قرأ الآية » وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عنه أنه قال : إن النبى - صلَّى الله عليه وسلَّم- قال : « إذا دخل الرَّجل الجنَّة سأل عن أبويه وزوجته وولده فَيُقَال له : إنَّهمّ لم يبلغوا درجتكَ وعملك ، فيقول : يارب قد عملت لى ولهم فيؤمَر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس الآية » .

والآية على ما ذهب إليه كثير من المُفَسِّرين فى الكبار من الذُّرِّيَّة ، وقال منذر بن سعيد : هى فى الصِّغار .

ورُوى عن الحبر والضَّحّاك أنهما قالا : إنَّ الله يلحق الأَبناء الصِّغار وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين ، وجعل (بإيمانٍ) على هذا الرَّأى متعلقاً بـألحقنا ،أى :ألحقنا بالآباء المؤمنين الصالحين ذُرِّيتَهم الصِّغار الَّذين لم يبلغوا التكليف - أوكانوا كبارًا مكلفين مؤمنين ولكنهم لم يبلغوا درجة آبائهم فى العمل الصالح ، والبعد عن المعاصى - ألحقناهم بآبائهم فى درجتهم فى الجنة إكراماً لهم ، ولتكمل بهم مسرتهم :

٢٢ - (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

أى :وزدناهم على ماكان لهم من مظاهر النِّعم فى وقت بعد وقت بفواكه كثيرة ولحوم من أنواع شتَّى مما يُستطاب ويُشْتَهى وإن لم يُصَرِّحوا بطلبه .

٢٣ - (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :

أى : يَتَجَاذَبُون فى الجنَّة-تَجَاذُبَ مُلَاطفة ويَتَعَاطَوْنَ تَعَاطِىَ تَوَادّ - كأساً مليئة بالشَّراب لا يكون منهم بِشُرْبها كلام باطل من لغو الحديث وسقط الكلام ولاعمل فاحش يستوجب

الإثم فاعلُه كما هو دَيْدَنُ النَّدَامى فى الدُّنيا ، وإنما ينطقون بالحكَم وأحَاسِن الكلام ويفعلون ما يفعل الكرام . والله أعلم.

(۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ
فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ) : يخدمهم غلمان مترددون عليهم .

(مَكْنُونٌ) : مصون ومحفوظ فى صدفه .

(مُشْفِقِينَ) : أرقاء القلوب من خشية الله .

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : فتفضل علينا كرماً منه .

(السَّمُومِ) : النار الشديدة الحرارة ، وسميت سموما ؛ لأنها تخترق مسام الجلد .

التفسير

٢٤ – (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) :

بعد أن ذكر الله النعيم الذى تفضل به على أهل الجنة أتبعه نعماً أخرى ،وأولها يتضمنه قوله–تعالى–: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) أى : ويقوم على خدمتهم من آن لآخر ولدان لهم لم يصلوا إلى درجة البلوغ ، وفى ذلك مزيد إيناس لمن يخدمهم

وفى قوله ـ تعالى ـ : (غِلْمَانٌ لَّهُمْ) ما يشير ويوحى بأن هؤلاء الولدان قد خصهم الله بأولئك المخدومين فى الآخرة لاينفكون عن خدمتهم ولا ينقطعون عن تبعيتهم لهم وأنهم مع تلك الخصال الطيبة على الصورة الحسنة والمنظر البهيج كأنهم اللؤلؤ المصون فى صدفه صفاء وبياضاً ونقاء ونفاسة ، هذا هو شأن الخادم ، فما بالك بالمخدوم .

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : بلغنى أنه قيل : يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

٢٥ ـ (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) :

أى : وأقبل كل واحد منهم على أخيه بوجهه ، وقد امتلأ بشرًا وحبورًا ، يسأل كل واحد منهم أخاه ورفيقه فى الجنة كما يسأله أخوه ، كل يسأل عن الأحوال والأعمال التى استوجبت ماهم فيه ، يسأله سؤال تلذذ وفرح بما ينعمون من ثواب حسن عظيم ، لا يشوبه خوف من انقطاع أو إشفاق من نقصان فيجيبون على هذا التساؤل بما حكاه عنهم فى قوله :

٢٦ ـ (قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) :

أى : قال كل واحد منهم : إنا كنا فى الدنيا بين أهلينا وأولادنا لايشغلنا عن مولانا وإلٰهنا شىء ، كنا خائفين من عصيانه ، رقاق القلوب من خشيته ، منصرفين إلى طاعته ، وجلين من عاقبة الأمر ونهاية المطاف وهو اليوم الآخر .

٢٧ ـ (فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ) :

أى : فتفضل علينا بمنّه وكرمه وحفظنا وجعلنا فى وقاية من عذاب النار وسعيرها ، وكانت الجنة هى دار المقام لنا ؛ لأنه فى الآخرة : إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، وليس فيما حل بنا من حفظ وما أقمنا فيه من كريم المنزل والمقعد الصدق عند ربنا ليس لنا فى ذلك من فضل ، فإن أعمالنا الصالحة بتوفيق الله ومعونته ، وهى مع هذا قليلة بالنسبة إلى هذا النعيم وذلك بعد أن زحزحنا ـ سبحانه ـ عن النار بفضله وسعة كرمه ، قال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال :

ولا أنا إلّا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد خيرًا ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب » ومهما عبد العبد ربه فآلاء الله التى غمره بها لا تحصى ونعمه لا تعد ، وإن أدقّ نعمة من الله على عبده لتزيد على أضعاف أضعاف ما يؤدى العبد لربه من عبادة وطاعة ، ولو كان من خاصة المقربين وقضى حياته ساجدًا لله – تعالى – والسموم : اسم من أسماء النار كما قال الحسن ، ثم أشار – سبحانه – إلى كمال تعظيمهم لأمر الله بقوله :

٢٨ – (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) :

أى : إنّا كنا فى الدنيا قبل أن نقدم ونصير إليه – سبحانه – لم تشغلنا أولادنا ولا أهلونا ولا أموالنا ولا ماكنا فيه من جاه زائف وسلطان زائل ، فكنا ندعوه ونلجأ إليه ونعبده فهو – جل شأنه – حقيق بالطاعة والانقياد والإذعان لأمره ، فهو البر التام الإحسان العميم الفضل إذا عُبد أثاب وإذا سئل أجاب .

(فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟
فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ
أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) : بسبب تفضل الله عليك بالنبوة وغيرها .

(بِكَاهِنٍ) الكاهن : هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، والمشاهد أنه يستمد إخباره بالغيب عن الجن ، وهذا عن الماضى ، أما عن المستقبل فلا سبيل له إليه فقد استأثر الله بعلمه .

(نَتَرَبَّصُ) : ننتظر .

(رَيْبَ الْمَنُونِ) : حوادث الدهر ومصائبه . والمنون : هو الدهر ، وقيل : هو الموت .

(أَحْلَامُهُمْ) : جمع حلم وهو العقل .

(طَاغُونَ) : مجاوزون الحد فى العناد .

(تَقَوَّلَهُ) : اختلقه من تلقاء نفسه .

التفسير

٢٩ - (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) :

أى : فدم على التذكير بما أوحاه الله إليك ولا تبال بافتراءاتهم ، فإن من أنعم الله عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين فضلا عن أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان قبل النبوة أعلاهم رأياً ، وأرجحهم عقلاً ، وأبينهم حجة ومنطقاً منذ أن ترعرع وشب إلى أن بلغ الأشد ، فما أبعد من كان هذا شأنه عن أن يكون كاهناً أو مجنوناً ، والكاهن يعتمد فى إخباره عن الغيب على الجن وبضرب من الظن .

والراغب الأصفهانى فى مفرداته خص الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية ، والعراف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة ، فضلا على أن الكهان كانوا عندهم من أكثرهم فطنة وهو ضد المجنون الذى لايعقل ، فكيف جمعوا بين هذين الوصفين المتناقضين فى افترائهم على الرسول ؟! .

٣٠ ـ (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) :

المنون : الدهر ، من المن بمعنى القطع ؛ لأنه يقطع الأعمار ، والريب : مصدر (رابه) إذا أقلقه فيكون المراد حوادث الدهر وصروفه التى تقلق النفوس ، أو المراد بالمنون : الموت ، وريبُهُ : نُزُولُهُ .

روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ؛ فإنه شاعر يهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت هذه الآية ، وقد نفى الله ـ تعالى ـ عنه فقال : « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّاتُؤْمِنُونَ .. » الآية ٤١ من سورة الحاقة .

٣١ ـ (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) :

أى : قل لهم ـ يا محمد متهكماً بهم مهددًا لهم ـ : انتظروا موتى ما شئتم فإنى أتربص وأنتظر هلاككم وفناءكم كما تتربصون هلاكى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » .

وفى هذا الأسلوب عِدَةٌ وبشارة لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله مهلكهم ومبيدهم .

ثم تنتقل الآيات مستهزئة بهم ساخرة منهم ومن عقولهم وذلك فى قوله ـ تعالى ـ :

٣٢ ـ (أَمْ تَأْمُرُهُم أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

أى : بل أتأمرهم عقولهم وألبابهم بهذا التناقض فى القول ، فتارة هو عندهم كاهن ، وتارة مجنون ، وتارة أخرى شاعر ، وكانت قريش يُدْعَوْن أهل النهى والأحلام الراجحة ، لأن جميع العالم العربى يأتونهم ويخالطونهم ، ولكنهم فى شأن الرسول أغفلوا عقولهم وأهدروا الاحتكام إليها والعمل بمقتضاها .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله ـ تعالى ـ بالعقل ؟ ! فقال : تلك عقول كادها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أى : لم يصحبها التوفيق ، فلذا لم يؤمنوا وكفروا .

قال الإمام الآلوسى : وأنا لا أرى فى الآية دلالة على رجحان عقولهم ،ولعلها تدل على ضد ذلك (بهذا) التناقض فى المقال ،فإن الكاهن والشاعر يكونان ذَوَىْ عقل تام وفطنة وقّادة ، والمجنون مغطى عقله مختل فكره ، وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا فى حيصَ بيصَ حتى اضطربت عقولهم ، وتناقضت أقوالهم ،وكذبوا أنفسهم من حيث لايشعرون اهـ . ولكل وجهته .

(أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) أى : بل هم قوم مجاوزون الحدود فى المكابرة موغلون فى العناد ، ولا يحومون حول الرشد والسداد ، لذلك تناقضوا فى وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٣٣ ـ (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) :

أى : بل أيقولون ـ كذباً وزوراً ـ : إن محمداً اختلق القرآن الكريم من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه بهتاناً وافتراءً ، فليس الأمر كمـــا يقولون (بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) بل إنهم لا يؤمنون بك ولا بما جئت به مع وضوح الحق لديهم جحداً واستكباراً ، قال الله ـ تعالى ـ : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » .

٣٤ ـ (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : فليأتوا بكلام يماثله فى البلاغة والإعجاز إن كانوا صادقين فيما يدّعونه من أنك يا محمد أتيت به من عندك ؛ فما أنت إلا واحد منهم نشأ بينهم ولم يفارقهم ،مع أن بلغاء العرب قد عجزوا وأفحموا ـ بعد أن تحديتهم ـ عن الإتيان حتى بسورة من مثله ،ومحمد عربى مثلهم ولم يعرف عنه أنه تبارى مع الفصحاء والبلغاء ، فإذا كنتم قد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلكم يعجز عن الإتيان بمثله ، لأنه فوق مستوى البشر أجمعين ، لقد كان وعاش أمياً لايعرف القراءة والكتابة مثلكم ، فلو أنه قدر على نظمه لكان غيره من الفصحاء والبلغاء أقدر على ذلك منه ،ومع ذلك بدا عجزهم حتى عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الله وأبان عجزهم فقال : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ
الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(خَزَائِنُ رَبِّكَ) الخزائن : هى البيوت التى تُهيأ لجمع أنواع مختلفة من النفائس والذخائر ، والمراد بها هنا : مفاتيح الرحمة والرزق وغير ذلك من عظائم النعم .

(الْمُصَيْطِرُونَ) : الأرباب الغالبون والمتسلطون القاهرون .

(سُلَّمٌ) : مُرْتَقًى ومصعد .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة بينة .

(مَغْرَمٍ) : من الغرم والغرامة ، قال الراغب : ما ينوب الإنسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه .

(مُثْقَلُونَ) : محملون ما يثقلهم ويجهدهم . (كَيْدًا) : مكرا .

(الْمَكِيدُونَ) : المكور بهم الذين يلقون جزاء مكرهم .

٣٥ - (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أى : أم خُلِقُوا هذا الخلق الدقيق العظيم وصوروا هذا التصوير البديع ، فجاءُوا على هذا النظام الحسن من استقامة فى أبدانهم ، ونطق بألسنتهم ، وإدراك فى عقولهم ، وتدبير لأمر معاشهم ، واهتداء إلى ما يصلحهم ويحفظهم ، أَخُلِقُوا هذا الخلق وقدروا التقدير المحكم الذى عليه فطرتهم من غير خالق ومقدر ؟

(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) أى : أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولا يلتفتون إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكيف يتصور عقل سليم وفكر مستقيم أن المعدوم يخلق ويوجد سواه فضلًا عن أن يخلق نفسه ؟ وهم مع شركهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم . قال -تعالى- : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] وإذا اعترفوا بأن ثَمَّ خالقاً قد خلقهم وهو الله - سبحانه وتعالى - فما الذى يمنعهم من الإذعان له بالعبادة دون الأصنام ؟ إنه هو التقليد لآبائهم ، ومن أجله أهدروا عقولهم ، وعاندوا فى الإقرار بالحق .

٣٦ - (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ) :

أى : بل أهم الذين خلقوا السموات والأرض ؟ كلا ، إنهم لم يخلقوها بل لم يقفوا على شيء من أسرارها وما تضم من مخلوقات جليلة عظيمة وعديدة ، فضلا عن أنهم أقروا بأن الله هو الذى خلقهن فقال - عز من قائل - : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »[2] .

٣٧ - (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) :

أى : بل أعندهم وتحت أيديهم ووفق تصريفهم مفاتيح رزق الله ورحمته من النبوة وغيرها من عظائم نعمه ودقائقها فيقسموها على من يشاءُون ويؤثروا بها من يريدون ويمسكوها

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٩ .

عمن لايرغبون ولا يحبون ؟ فلهذا رأوا أن تكون الرسالة لرجل من القريتين عظيم ؟ واستبعدوا النبوة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لفقره .

(أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) أى : بل أهم الأرباب الغالبون والمعبودون القاهرون حتى يدبروا أمر الخلق ، وينفردوا بهذا التقدير المحكم والتدبير المتقن ، ويعطوا النبوة لمن شاءوا ، ويستعبدوها من سواه ، إنهم ليسوا كذلك ،فالله وحده هو قيوم السموات والأرض وليس له نِدٌّ ولا شريك .

٣٨ - (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : بل أيَدَّعُونَ أن لهم مرتقى ومصعدًا منصوباً إلى السماء يستمعون وهم صاعدون فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى به إليهم من علم الغيب حتى يعلموا أن الظفر والغلبة والعاقبة لهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ادعوا ذلك وزعموه لزمهم أن يأتوا بحجة واضحة ودليل ظاهر بيّن يصدق دعواهم ، وأنّى لهم هذا الدليل ؟ وليس لهم إليه من سبيل .

٣٩ - (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) :

هذا إنكار وتوبيخ ووعيد لهؤلاء الذين بلغ بهم التدنّى فى السفه والغلو فى العناد إلى أن ادعوا أنّ الملائكة إناث ، وأن الله قد اختارها لنفسه وآثرهم بالبنين ، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يعرفوا فطرتهم ، ولم يقفوا على حقيقتهم حتى يصفوهم بالأنوثة ويزعموا مع ذلك أنهم بنات الله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » [(١)] وهم يزعمون أن لهم البنين فيختارون لله ما يكرهون ، ولهم ما يحبون « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » [(٢)] . ليس الأمر كما تزعمون أيها الحمقى - تعالى الله عما تقولون علوًّا كبيرًا - فهو - سبحانه - منزه عن الشريك والصاحبة والولد .

٤٠ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

أى : بل أتطلب منهم أجرًا وجزاء على هدايتك لهم وإرشادهم إلى دين الله الحق تلزمهم بهذا الأجر وتجبرهم عليه ، فهم من هذا الغرم الثقيل الفادح المجهد لهم يزهدون فى اتباعك

---

(١) سورة الزخرف من الآية : ١٩ .

(٢) سورة الزخرف الآية : ١٧

ويصدون عنك ؟ إنك لم تطلب منهم أجرًا على تبليغ رسالة ربك ، بل لقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة على خير أداءٍ وأفضل تبليغ امتثالًا لأمر ربك ، وكنت مع ذلك شديد الشفقة عليهم والرحمة بهم رغبة فى إيمانهم .

٤١ - (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم ولديهم علم ما غاب عن الناس مما هو مسطور فى اللوح المحفوظ وغيره ومما استأثر الله بعلمه ، فعرفوا أن ما أخبرهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من أمر القيامة وما فيها من بعثٍ وحساب ، ثم جنة أو نار ، أعلموا أن ما أخبرهم به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس له حقيقة ، وإنما هو أمرٌ باطلٌ ،وهم لذلك يكتبون للناس بذلك ويخبرونهم ؟ ليس هذا لديهم ولاهم فى شىءٍ منه .

٤٢ - (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) :

هذه الآية الكريمة من الإخبار بالغيب ؛لأنها نزلت قبل اجتماع المشركين فى دار الندوة قبيل هجرته - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وائتمارهم عليه ، فمنهم من كان يرى أن يحبس حتى يموت ، واقترح آخرون أن يخرج وينفى من ديارهم ، ثم اتفقوا جميعاً على أن يختار من كل قبيلة شاب جَلْد فيضربوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضربة رجل واحد فيتفرق دَمُهُ فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم فيقبلون ديته ،ولكن الله - سبحانه - أعماهم فهم لايبصرون ، وخرج - صلى الله عليه وسلم - من بينهم بعد أن حثا التراب عليهم . والمعنى : بل أيريدون الخديعة والمكر بك لينالوا منك ويقضوا عليك ، إن الله - سبحانه - لن يمكنهم منك ،ولن يصلوا فيك إلى ما يريدون ، فالله راعيك وحافظك ، أما هم فبسبب كفرهم سينزل الله بهم عاقبة مكرهم ،ووبال خداعهم « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] وسيلقون جزاءهم فى الدنيا هوانا وقتلا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

٤٣ ـ (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : بل ألهم إله خلقهم ورزقهم يحييهم ويميتهم ويعطيهم ويمنعهم غير ربِّ السموات والأرض رب العالمين ، فهم لإلـٰههم هذا يدينون بالربوبية ويشركونه مع الله فى العبادة ، إن الله ـ سبحانه ـ تنزه وتعالى عما يشركون فهو الذى تقدس عن أن يكون له شريك أو ند أو نظير .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

(وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ
مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾
يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾)

المفـــردات :

(كِسْفًا) : قطعة .

(مَرْكُومٌ) : ملقى بعضه فوق بعض .

(فَذَرْهُمْ) : فدعهم واتركهمْ .

(يُصْعَقُونَ) : يهلكون ويموتون .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١١

(دُونَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك .

(لِحُكْمِ رَبِّكَ) : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته .

(بِأَعْيُنِنَا) : فى حفظنا وحراستنا .

(إِدْبَارَ النُّجُومِ) : غيبها وذهاب ضوئها بطلوع الفجر الثانى .

التفسير

٤٤ - (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) :

أى : وإن يروا بأعينهم ويظهر لهم قطعة عظيمة من السماء تسقط عليهم لتهلكهم وتقضى عليهم لقالوا - من فرط طغيانهم وشدة عنادهم -: هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض يحفل بالمطر ويمتلئ بالغيث يسقينا ويروينا ، ولم يصدقوا أنه كِسْف وقطعة تنزل لعذابهم ، وهم بقولهم هذا يتبعون طريق وسنن من كان قبلهم فى صلفهم وكبرهم كعاد قوم هود عند ما رأوا سحاباً استقبل أوديتهم فرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا يأتينا بالمطر ، وقد حكى القرآن الكريم عن رسولهم هود - عليه السلام - أنه قال لهم :

« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »[1] .

٤٥ - (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) :

أى : اتركهم - يا محمد - غير مكترث بهم ولا ملقياً لهم بالاً حتى ذلك اليوم الذى فيه يلقون حتفهم وهلاكهم وهو يوم غزوة بدر حيث ينصرك الله نصرًا مبيناً مؤزرًا تطمئن به قلوبكم ، ويقهر به عدوكم ، ويُلقى الله به الرعب فى قلوب من تحدثه نفسه أن ينازلكم أو يتعرض لملاقاتكم .

---

(١) سورة الأحقاف ، من الآية : ٢٤ والآية : ٢٥ .

٤٦ - (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : فى هذا اليوم الذى هو يوم بدر لا يفيد ولا يغنى عنهم ما مكروا به ودبروه فى دار الندوة لإلحاق الأذى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الكيد والمكر الذى عاونهم فيه إبليس - عليه اللعنة - كما لم ينفعهم ما أعدوه من العدد والعُدّة لمناصبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم وراء ذلك لايجدون أحدًا ينصرهم ويمنع عنهم نزول الهزيمة بهم ، وقتل سادتهم وشجعانهم وأشرافهم .

٤٧ - (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : لا يقف شأن إنزال الهوان والعذاب بهم عند هذا الحد ولا يقتصر على إحاطته بهم يوم بدر ، بل وإن لهؤلاء الظالمين أنفسهم بكفرهم ،والظالمين غيرهم بالقتل والتعذيب والإذلال ،إن لهؤلاء جزاء ظلمهم - عذاباً مهيناً غير هذا العذاب الذى نزل بهم وهو ما يصيبهم من القحط والجدْب فى السنين السبع التى أكلوا فيها الجيف ، ورديْ الطعام ومُرّه ، أومايلقونه من مصائب الدنيا وعذاب القبر ،وهم عن ذلك فى غفلة ،وأكثرهم لايعلمون ما سيحل بهم من الوبال والهلاك ، وبعضهم يعرفه ويعلمه غير أنه يصر على الكفر والضلال عنادًا وكبرًا وَصَدًّا .

٤٨ - (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) :

أى : اصبر - يا محمد - على ما حملك الله من رسالته ،وما يتبع ذلك مما ابتلاك الله به من سفه قومك وإعراضهم (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) أى : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما يحدث منك وما يفعله أعداء الله بك ،فنحفظك ونرعاك ونحرسك ، وفى التعبير بصيغة الجمع فى قوله - تعالى - : (بِأَعْيُنِنَا) للدلالة على المبالغة فى الحفظ ،كأن معه من الله - تعالى - حُفّاظًا يكلؤونه بأعينهم ، وقال الإمام الآلوسى نقلا عن العلامة الطيبى : إنما أفرد هناك - يعنى فى سورة طه - فقال فى شأن موسى - عليه السلام - : « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » لإفراد الفعل هناك وهو كلاءة موسى « رعايته وحفظه » وهنا لما كان لتصبير الحبيب - يعنى محمدًا ، صلى الله عليه وسلم - على المكابد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها

أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه ـ عز وجلّ ـ ثم قال : ومن نظر بعين بصيرة علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم ـ عليهما أفضل الصلاة والتسليم ـ وفى هذا وعد للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصر والحفظ والرعاية ، وبشارة للمسلمين بالظفر والأمان .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) أى : نزه ربّك وقدّسه ، قال عون بن مالك وابن مسعود وغيرهما : المراد : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ، فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ، ودليل هذا ما أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لَا إلٰه إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلَّا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » وقيل : المعنى : حين تقوم من منامك ، قال حسان بن عطية : ليكون متفتحاً لعمله بذكر الله ، وقال الكلبى : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السمٰوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ربُّ السمٰوات والأرض ومن فيهن ، وأنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤُك حق ، والجنة حق ، والنّار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وأسررت وأعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إلٰه إلَّا أنت ولا إلٰه غيرك » متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضاً أنّهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران .

٤٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) :

أى : وفى بعض الليل نزه ربك وقدسه وعظمه ، وخص - سبحانه - بعض الليل وأفرده بالتسبيح والتقديس له - جل شأنه - لأن العبادة فى جوف الليل أشق على النفس وأبعد عن الرياء ، ويجوز أن يراد بالتسبيح هنا : الصلاة فى الليل والتهجد فيه ، وهذه الصلاة من خصوصياته - صلى الله عليه وسلم - الواجبة عليه وحده ، والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من التسبيح لله ، ومنه سُبحة الضحى ، أى : صلاة الضحى (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) : هو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشق من سواد الليل ، والمراد به : صلاة ركعتين قبل الفجر ، وهذا مروى عن كثير من الصحابة كعمر وعلى وأبى هريرة وغيرهم - رضى الله عنهم جميعاً - كما هو مأثور أيضا عن كثير من التابعين كالحسن البصرى والنخعى والشعبى وغيرهم ، كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله : بت ليلة عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : « يا بن عباس ، ركعتان قبل الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود » وفى صحيح مسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على شىء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح . وعنها أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها . والله أعلم .

سورة والنجم

وتسمى — أيضاً — سورة النجم — بدون واو — وهى مكية وآياتها ثنتان وستون آية ، وهى كما روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : أول سورة أعلن النبى — صلى الله عليه وسلم — بقراءتها فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى وغيره قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة : (والنجم) فسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسجد الناس كلهم إلّا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا ، وهو أميّة بن خلف ، وفى البحر أنه — عليه الصلاة والسلام — سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبى لهب ، فإنه رفع حفنة من تراب وقال : يكفى هذا ، فيحتمل أنه هو وأمية بن خلف فعلا ذلك .

وعن عروة بن الزبير — رضى الله عنهما — أن عتبة بن أبى لهب ، وكانت تحته بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدًا فلأوذينّهُ ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى والذى دنا فتدلى ، ثم تفل فى وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (اللّهم سلط عليه كلباً من كلابك) وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة (كثيرة السباع) فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله » وقال حسان :

من يرجع العام إلى أهله فما أكِيلُ السبع بالراجع

ومناسبتها لما قبلها : أن سورة الطور ختمت بقوله — تعالى — : (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) ، وافتتحت سورة النجم بقوله — تعالى — : (وَالنَّجْمِ) ، وأيضاً فى مفتتحها ما يؤكد الإنكار

والرد على الكفرة فيما نسبوه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الشعر والكهانة والجنون ، ومن الزعم بأنه يتقول ويختلق على الله القرآن ، ويدّعى أنه من عند الله ، مما هو مذكور فى سورة الطور كقوله - تعالى - : « فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » وقوله - تعالى - : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » .

وذكر أبو حيان : أن سبب نزولها قول المشركين : إن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - يختلق القرآن ، فنزلت السورة الكريمة للرد عليهم .

بعض مقاصد السورة :

١ - أنها - شأن السور المكية - تعنى بالرسالة وتؤكدها ، قال - تعالى - : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) .

٢ - أن السورة الكريمة تحدثت عن المعراج الذى كان تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد عام الحزن على وفاة زوجه أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها - وعمه أبى طالب ، وما رآه - عليه الصلاة والسلام - من آيات ربه الكبرى ، وعجائبه العظمى فى الملكوت الأعلى ، عند سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى .

٣ - أنها تنعى وتعيب على هؤلاء المشركين عبادة غير الله من الأوثان والأصنام وغيرها من المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، بل إن بعضها قد صنعوه بأيديهم (أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ) الآيات. ثم إنها تسفههم على أن آثروا أنفسهم بالبنين ، وجعلوا لله ما يكرهونه ويأنفون منه وهو البنات قال تعالى : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ) .

٤ - أنها أخبرت عن الحساب والجزاء يوم القيامة : (لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

٥ ـ أنها تحدثت عن أن الله هو الذى يحيى ويميت وأنه إليه المنتهى والمصير ، وأنه وحده هو الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) .

وكانت خاتمة السورة أن ذكرت أصنافاً من العذاب لأمم خالفت أنبياءها وآذتهم ، فأنزل الله بهم ما يستحقون ، وذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعد له وللمؤمنين بنصر الله ، كما أن فيها وعيدًا وتهديدًا للمشركين أن يحل بهم ما نزل بغيرهم ممن هم على شاكلتهم ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾
وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ
إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ
عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(هَوَىٰ) : سقط أو نزل .

(مَا ضَلَّ) : مازلَّ ولا بعد عن طريق الهدى .

(وَمَا غَوَىٰ) : ماخاب ولا أمعن فى الجهل .

(ذُو مِرَّةٍ) : ذو حصافة فى رأيه ومتانة فى دينه .

(فَاسْتَوَىٰ) : فاستقام على صورته الحقيقية .

(دَنَا) : قرب .

(فَتَدَلَّىٰ) : امْتَدَّ من أعلى إلى أسفل فزاد قربه .

(قَابَ قَوْسَيْنِ) القاب : ما بين المقبض وطرف القوس ، والقوس : آلة على هيئة الهلال ترمى بها السهام ، أى : مقدار قوسين عربيتين .

(أَفَتُمَارُونَهُ) : من المِراء ، وهو الملاحاة والمجادلة ، أى : أفتجادلونه .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) :

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) المراد بالنجم هنا : هو جنس النجوم ،وهى من خلق الله ، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وتصك وترمى بِجُزَيْئَات منها الشياطين التى تسترق السمع فيتبعها من هذه النجوم الشهاب الثاقب الذى يصدها ويدفعها ، كما أنها تزين السماء الدنيا بالزينة الحسنة ،والحلية البهيجة قال-تعالى- : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ »[1] فضلا عن أن هذه النجوم آية باهرة تدل على كمال اقتداره - سبحانه - وعظيم سلطانه ؛ إذ هى فى أفلاكها ومداراتها لاتضل ولايصطدم بعضها ببعض بل تسير وفق نظام بديع محكم والمراد بِهُوِىِّ النجم سقوطه على الشياطين ، وفيه إشارة إلى أن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- سيظهر ويقهر الله أعداءه ، كما تفعل الصواعق التى تهوى من النجوم بما يكون فى طريقها .

أقسم- جل شأنه-بالنجم الذى له هذه الصفات الجليلة والخصائص العظيمة (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يضل ولم يبعد عن الحق ولم يغب أو ينأ عن الهدى ، بل هو على الصراط المستقيم (وَمَا غَوَىٰ) أى : وما خاب ولا انخرط فى سلك الجهال المارقين عن الدين الصحيح ، بل هو راشد مهتد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغىّ . وفى القسم بالنجم بهذا المعنى على أنه - عليه الصلاة والسلام- منزه عن شائبة الضلال والغواية - فى هذا القسم - من البراعة البديعية ، وحسن التصوير ، وجمال الواقع مالاغاية وراءه ؛ لأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : والنجم الذى يهتدى به السابلة إلى مقاصدهم ،ويسترشدون به فى مسالكهم نحو غاياتهم ماعدل محمد عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ، وفى هذا من التمثيل مايعطى

---

(١) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة الصافات .

بأنه - عليه الصلاة والسلام - على الصواب فى أفعاله وأقواله ، ما اعتقد باطلا قط ، وعطف قوله : (وَما غَوَىٰ) على قوله : (مَا ضَلَّ) من قبيل عطف الخاص على العام .

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وحْيٌ يُوحَىٰ) أى : وما يتكلم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من القرآن الكريم عن هوى نفسه ورأيه أصلا إنما هو وحى من عند الله يوحيه الله إليه ، وقيل المراد : ما يصدر نطقه - عليه الصلاة والسلام - فى شأن الدين مطلقاً - قرآنا كان أو غيره - عن هوى بل كُلُّهُ وحى . وهناك من المفسرين من يرى أن نطق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجتهاده ليس صادراً عن هوى النفس ، وإنما هو واسطة بين ذلك والوحى ، ويجعل الضمير فى قوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) راجعاً للقرآن الكريم ، وبهذا قال العلامة الآلوسى . كأنه قيل : إذا كان هذا شأنه - عليه الصلاة والسلام - أنه لا ينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف ما عليه قومه ، واستمال به قلوب كثير من الناس ، وكثرت الأقاويل فيه . ما هو إلا وحى يوحيه الله - عزَّ وجلَّ - إليه - صلى الله عليه وسلم - ليبلغه الناس .

وفى قوله - تعالى - : (وَمَا يَنطِقُ) مضارعاً وهو ما يدل على الحال والمستقبل مع قوله - سبحانه - : ما (ضَلَّ) (وَمَا غَوَىٰ) بصيغة الماضى فيهما ما يدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ ميَّز ، وقبل أن يتدرج ويترقى فى أمور الحياة ويتدرب عليها ، وقبل أن يختاره ربه - جل وعلا - نبيًّا ورسولا فكيف به وقت أحكمته التجارب وتوجته الرسالة فهو لاشك - وهذه حاله - أبعد من أن ينطق عن هوى نفسه ، أو يتكلم عن شهوة ، وفى هذا الأسلوب - كما يقول العلامة الآلوسى - : حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم .

٥ - (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) :

أى : علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم وأنزله عليه من عند الله - عز وجل - ملك شديدة قواه وهو جبريل - عليه السلام - ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم

لوط ثم قلبها ، وقد صاح صيحة بثمود قوم صالح - عليه السلام - فأصبحوا جاثمين هالكين ، كما كان هبوطه على الأنبياء - عليهم السلام - وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف .

٦ - (ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ) :

(ذُو مِرَّةٍ) أى :ذو حصافة فى عقله ، وجزالة فى رأيه ، ومتانة فى دينه ، وقد ائتمنه الله - تعالى - على وحيه إلى جميع الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام - (فَاسْتَوَىٰ) أى : فاستقام جبريل- عليه السلام - على صورته الحقيقية التى خلقه الله- تعالى - عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وكان ينزل على رسول الله- صلى الله عليه وسلم - فى صورة الصحابى الجليل « دحية الكلبى » كما كان يتمثل وينزل فى صورة أعرابى ، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحب أن يراه فى صورته التى جبل وخلق عليها .

٧ - (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) :

أى : جبريل - عليه السلام - بالجهة العليا من السماء فاستقام وظهر وملأ الأفق ، وكان ذلك عند غار حراء فى أوائل النبوة .

٨ - (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) :

أى : ثم قرب جبريل - عليه السلام- من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (فَتَدَلَّىٰ)فتعلق فى الهواء ودنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- دُنُوًّا خاصاً ونزل بقربه .

٩ - (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) :

أى : فكان مقدار مسافة قرب جبريل - عليه السلام - من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كمقدار قوسين عربيتين أو أقرب من ذلك على تقديركم ومعاييركم ،وهذا كناية عن شدة القرب .

١٠ ـ (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) أى : فأوحى جبريل ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أوحاه إليه من عند الله ـ سبحانه ـ ولم يبين ـ جل شأنه ـ الموحى به ، وذلك لتفخيمه وتعظيمه ، أى : أوحى إليه أمرًا عظيماً .

١١ ـ (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) :

أى : ما كذب قلب محمد ما أبصره بعينيه من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ أى : ما قال فؤاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رآه ببصره : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذباً وحاشاه أن يكون كذلك ، بل إنه ـ عليه السلام ـ عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

١٢ ـ (أَفَتُمَٰرُونَهُۥ [١] عَلَىٰ مَا يَرَىٰ) :

أى : أفتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ الحقيقية بعد ما رآه قبل على صور تمثل فيها بصورة آدمية ؟ كان ذلك حتى لا يشتبه عليه بأى صورة ظهر فيها .

(١) وهو من المراء، وهو المجادلة، واشتقاقه من مرى الناقة : إذا مسح ضرعها ليخرج لبنها وتدر به، فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجة ، فكأنه يستخرج دره : الآلوسى .

(وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ
ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ
ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ
إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(نَزْلَةً أُخْرَىٰ) : مرة أخرى من النزول .

(سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) السدرة : شجرة نبق فى السماء ، إليها ينتهى علم كل الخلائق .

(جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) : الجنة التى يأوى إليها المتقون ، وقيل غير ذلك .

(مَازَاغَ الْبَصَرُ) : ما مال بصر الرسول عما رآه .

(وَمَا طَغَىٰ) : وما تجاوز ما رآه إلى غيره .

(آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) : عجائبه الملكية والملكوتية .

(اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) : أصنام لهم كانوا يعبدونها .

(قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) : قسمة جائرة .

(مِن سُلْطَانٍ) : من برهان وحجة .

(مَا تَمَنَّىٰ) : ما تشتهى نفسه .

التفسير

١٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) :

أى : ولقد رأى النبىُّ - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - فى صورته التى جبل عليها مرة أخرى ، والرؤية فى هذه المرة كانت بنزول كالرؤية فى المرة الأولى عند غار حراء يشير إلى ذلك قوله تعالى : (نَزْلَةً أُخْرَىٰ) وقيل : رأى محمد - عليه الصلاة والسلام - ربه - جل وعلا - بلا كيف ولا انحصار . كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وغيره .

١٤ - (عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) :

هذه السدرة هى شجرة نبق عن يمين العرش فى السماء السابعة . (الْمُنتَهَىٰ) : اسم مكان ؛ لأنها - كما أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس - إليها ينتهى علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله - تعالى - وقيل : لأنها تنتهى إليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله عندها ، أو تنتهى عندها أرواح الشهداء ، أو أرواح المؤمنين مطلقاً .

١٥ - (عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) :

أى : عند سدرة المنتهى تكون جنة المأوى التى يأوى ويرجع إليها المتقون ، أو يصير وينزل فيها أرواح الشهداء .

١٦ - (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ) :

أى : رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - وقت ما يغطى ويستر السدرة ما يغطيها ويسترها من الأشياء الدالة على عظمة الله وجلاله مما لا يحيط به الوصف ، ولا يقدر على إدراك حقيقته الأفهام ، وقيل : ما غشاها وسترها من الملائكة . أخرج عبد بن حميد قال : استأذنت الملائكة الرب - تبارك وتعالى - أن ينظروا إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه - صلى الله عليه وسلم -

١٧ - (مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) :

أى : ماعدل بصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ، وما تجاوز ما أذن له فى رؤيته ولا تعداه إلى سواه ، فقد أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلّا ما أمر به ، ولايسأل فوق ما أعطى له ، ولله درّ القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها

١٨ - (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لقد نظر وأبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضاً من عجائب خلق الله وآياته العظمى كرؤيته جبريل - عليه السلام - فى صورته الحقيقية وكرؤية سدرة المنتهى وما شاهده فيها ، وقد أخرج البخارى وجماعة ،عن ابن مسعود فى الآية :(رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق) .

١٩ ، ٢٠ - (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) :

لما ذكر الوحى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الآيات السابقة وذكر - سبحانه - أيضاً بعض آثار قدرته حاجّ المشركين وسفههم ووبخهم إذ عبدوا مالا يعقل ، وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التى تعبدونها وقد أوحت وأنزلت إليكم شيئاً كما أوحينا إلى محمد ؟ وهل رأيتم من عجائب خلقها كما رأى محمد من آيات ربه الكبرى ؟ واللات والعزى ومناة أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله : فاللات لثقيف بالطائف . وقيل فى هذا الصنم : إنه كان رجل يلت السويق للحاج على حجر ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له وسموه بذلك ، وهناك أقوال أخرى غير هذه فى سبب التسمية ، وبقيت اللات إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، أما العزى : فكانت لقريش أو لغطفان وهى سمرة ببطن نخلة بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ، فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

ياعز كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع وأخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال – عليه الصلاة والسلام – : « تلك العزى ولن تعبد أبدًا » . وكانت مناة لهذيل وخزاعة ،وقيل : لبنى هلال ، فبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليًّا – كرم الله وجهه – فهدمها عام الفتح ، وسميت (مناة) ؛ لأن دماء الذبائح والنسائك كانت تمنى (تراق) عندها تقرباً إليها ، أو هى مأخوذة من النوء لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها (الْأُخْرَىٰ) :صفة ذم وهى المتأخرة الوضيعة ، وهى – أيضاً – تدل على ذم السابقتين (اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ) ، لأن أخرى تأنيث آخر تستدعى المشاركة مع السابق عليها فى الحكم ، وهو هنا الذل والوضاعة ونزول القدر والمكانة .

٢١ – (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) :

بعد أن سفه الله أحلامهم ووبخهم على ما اقترفوه من عبادة هذه الأصنام مع وضوح آثار عظمة الله فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته – بعد ذلك – أنحى عليهم مرة أخرى بالتقريع والتوبيخ لتفضيلهم أنفسهم على جنابه – عز وجل – حيث جعلوا له – سبحانه– الإناث التى يأنفون منها ، واختاروا لأنفسهم الذكور ، وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله – تعالى – فقال لهم :

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) أى : أيستقيم قولهم هذا لدى أرباب العقول السليمة والفطر المستقيمة ؟

٢٢ – (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) :

أى : قسمتكم هذه قسمة جائرة ظالمة حيث اصطفيتم لأنفسكم الذكور ، وجعلتم لله الإناث ، ومن شأنكم أنكم تستنكفون من أن يولدن لكم وينسبن إليكم ، فضلا عن أن تجعلوا هؤلاء الإناث أندادًا لله وتسمونهن آلهة .

٢٣ – (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) .

(إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ) :

أى :ما الأصنام التى تدّعون أنها آلهة –ما هى– إلا أسماء ليس تحتها فى الحقيقة مسميات ، وما تزعمونه لها هو أمر أبعد شيء عنها ، وأشد منافاة لها ، فهى لاتدفع عن نفسها ولاتنفع ولا تضر غيرها (أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم) أى : قد تابعتم آباءكم وقلدتموهم فى عبادتها واتخاذها آلهة ، وهى ليست إلّا مجرد تسميات لجمادات وضعتموها أنتم (مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) .

أى : ما هى إلّا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم على صحة تسميتها آلهة برهان ودليل من الله تتعلقون وتتمسكون به .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ) :المراد بالظن هنا : هو التوهم ، وشاع استعماله فيه ، أى : ما تتبعون ولا تسيرون إلّا وراء وهم باطل حيث يدور فى خلدكم العليل وعقلكم السقيم أنَّ ما أنتم عليه حق ، وأن ما تزعمونه من آلهة تشفع لكم .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) :أى : والحال أن الله –سبحانه– قد أرسل إليكم رسوله – صلى الله عليه وسلم – تفضلا منه وإنعاماً عليكم يهديكم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فكيف تتركون ما جاءكم من الهدى والرشاد إلى ما أنتم عليه من دين باطل واعتقاد فاسد .

٢٤ – (أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ) :

أى : بل ليس للإنسان مطلقاً ما يتمناه وتشتهيه نفسه يتصرف فيه حسب إرادته ، وهذا يقتضى نفى أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى لدى الله يوم القيامة ، قال تعالى – حكاية – عن بعض هؤلاء الكفار :

« وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » كما ينفى ما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أو يكون بعضهم هو النبى ونحو ذلك من أمانيهم الكاذبة الخادعة .

٢٥ - (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ) :

أى : هو - سبحانه - وحده مالك الدنيا والآخرة يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء وليس لأحد أن يعقب عليه فى شىء منهما ، بل ماشاء الله - تعالى - له كان ومالم يشأ لم يكن .

والله أعلم .

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ) كم هنا : اسم استفهام خبرى فلا يحتاج إلى جواب ، والمراد منه التكثير ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره جملة (لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً) ومعناه : وكثير من الملائكة .

(لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) أى : لمن يشاء الله أن يشفع له الملائكة ويراه أهلا للشفاعة .

(يُسَمُّونَ الْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ) بأن يقولوا : إنهم بنات الله ، « تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم الباطل .

(لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) : لا ينفع الظن من الحق شيئاً من النفع .

(فَأَعْرِضْ عن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا) : اترك ولا تهتم بمن أعرض عن قرآننا .

التفسير

٢٦ - (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ) :

بهذه الآية يوبخ الله من عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن عبادتهم تقرب إلى الله تعالى ، فقد نبهت ودلت على أن الملائكة مع كثرة عبادتهم وكرامتهم على الله لاتملك أن تشفع إلا لمن أذن الله - تعالى - أن يشفعوا له من عباده ممن يستحق الشفاعة من الموحدين فكيف تطمعون أن يشفعوا لكم ، لأنكم تعبدونهم ؟ وإذا كانت الملائكة المقربون إلى الله لاتشفع لكم فكيف تطمعون فى شفاعة الأصنام أيها المشركون .

ومعنى الآية على هذا : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم شيئاً من النفع لأحد من عباده المذنبين إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاؤه من عباده ويرضاه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فالله لايأذن لأحد من الملائكة فى الشفاعة لهم ، أولا تكون منهم شفاعة أصلا إلا من بعد أن يأذن الله ...الخ . وأجاز بعضهم أن يكون معنى الآية : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاؤه منهم بالشفاعة ، ويراه أهلا لها .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) :

إن الذين لايصدقون بالبعث والحساب والجزاء فى الآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، فيقولون : هم بنات الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وليس لهم بهذا الادّعاء من علم ، فإنه ليس عليه دليل عقلى ولانقلى ، ما يتبعون فى هذه التسمية إلّا التوهم الباطل ، وإنه لا يغنى من الحق شيئاً من الإغناء .

وقد أنكر الله فى هاتين الآيتين أمرين ونفاهما :

أحدهما : دعوى أنوثتهم .

وثانيهما : أنهم بنات الله ، وقد توعدهُم الله على ذلك فى سورة الزخرف فقال - سبحانه - : « وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ، أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ »[1] .

٢٩ ، ٣٠ - (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ) :

اترك ولا تهتم أيُّها الرسول بمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم بالحق ، وهو القرآن العظيم ، المشتمل على العقائد الصحيحة ، وعلى علوم الأولين والآخرين ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا قاصرًا نظره عليها كالنضر بن الحرث ، والوليد بن المغيرة ، ولا تحرص على هداهم أكثر مما فعلت ، ولا تبأس على القوم الكافرين ، ذلك الذى تقدم فى شأن عقيدتهم ، وقصر نظرهم على الدُّنيا وإنكارهم للآخرة هو منتهى ما وصلوا إليه من الإدراك والفهم ، إن ربك هو أعلم بمن انحرف عن السبيل الموصل إلى مرضاته ، وهو أعلم بمن اهتدى إليه ، فسوف يجزى كليهما بالجزاء الذى يستحقه .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩ .

(وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟
بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ
هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) : ويجزى الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنى .

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ) الذين :خبر لمبتدأ محذوف ، أى :هم الذين يجتنبون . إلخ والجملة بيان لمن اهتدى ، وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ويكبر عقابه .

(اللَّمَمَ) : ما صغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره ، ومنه لمة الشَّعَر ، لأنها دون الوفرة .

(فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ) : فلا تصفوها بالطهارة .

التفسير

٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) :

أى : ولله وحده جميع مافى السموات ومافى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، -له تعالى كل ذلك - خلقاً وملكاً وتصرفاً ، خلقهما وخلق ما فيهما ومَلَكَه ليجزى الذين أساءوا بعقاب ما عملوا ، ويجزى الَّذين أحسنوا فآمَنُوا وعملوا الصالحات بالمثوبة الحسنى .

٣٢ - ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ :

هذه الآية بيان للذين أحسنوا ومدح لهم ، فكأنه قيل : المحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ولا يفعلونها ، ولكن قد يفعلون اللمم .

وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ، ووصفها بعضهم بما ورد فيه وعيد شديد كالغيبة والنميمة ، والفواحش هى نفس الكبائر - كما ذهب إليه بعض العلماء - فعطفها على الكبائر لتقبيحها ، وذهب آخرون إلى التفرقة بينهما ، فالكبائر : ما ورد فيه وعيد شديد أو لعن بلا إقامة حدّ ، والفواحش : ما ورد فيها الحد كالزنى والسرقة والقتل بغير حق ، ويشبه هذا الرأى ما نقل عن مقاتل : كبائر الإثم : كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد .

واللَّمَمَ : ما يُلم به العبد من صغائر الذنوب ، ومثَّل له أبو سعيد الخدرى بالنظرة ، والغمزَة ، والقبلة ، وفسره الرُّمَّانى : بأنه هو الهم بالذنب وحديث النَّفْس دون ارتكاب له ، وعليه فالاستثناء فيه منقطع بمعنى : (لكن) قد يحدث منهم اللمم ، وعن ابن عباس : هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم يتوب ، وبه قال مجاهد والحسن ، ودليل ذلك قوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ »[1] ثم قال : « أُولَـٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. »[2] ودليله من الآية (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) وعليه يكون متصلا .

والآية عند الأكثرين تدل على انقسام المعاصى إلى كبائر وصغائر حقيقة كما تقدم [وقال جماعة من الأئمة منهم أبو إسحاق الإسفرايينى والباقلانى وإمام الحرمين - قالوا - : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها كبيرة والأخرى صغيرة بالنسبة إليها ، وكلها قابلة للتوبة منها وتكفر بها ، وبهذا قال معظم المعتزلة . وقال بعض العلماء : إنه لا خلاف فى المعنى بين الرأيين ، فإنه لاخلاف بين العلماء فى أنَّ من المعاصى ما يقدح فى العدالة ، ومنها مالا يقدح فيها ، وإنما سَمَّوها كلها كبائر نظرًا لعظمة الله الذى لا يصح أن يعصى .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٦ .

وبعد هذا نقول : استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، واحذر الصغائر فإنها مدرجة إلى الكبائر ، نسأل الله العصمة منها .

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) حيث يغفر الصغائر بتجنب الكبائر ؛ بل ويغفر الكبائر بالتوبة منها .

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) الله أعلم بكم أيها الناس حين أنشأكم من الأرض ، حيث خلق أباكم آدم من ترابها ، أو أنشأكم جميعاً منها ، فإن النطفة التي خلقكم منها ناشئة من الأغذية ، والأغذية منشؤها الأرض .

والله تعالى أعلم بكم وقت كونكم أجنة فى بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة بعضها يلى بعضاً ، وإذا كان الأمر كذلك فلا تزكوا أنفسكم وتصفوها بالطهر من الإثم ، هو أعلم بمن اتقى المعاصى كما يعلم من فعلها ، فيجازى كلا على عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهذه الآية نزلت –على ما قيل– فى قوم من المؤمنين ، كانوا يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون استعظاما لها وتكاثرا : صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء ، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ، ولذا قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(الَّذِى تَوَلَّىٰ) : الذى رجع معرضاً عن الإسلام بعد ما كان مقبلا عليه .

(وَأَكْدَىٰٓ) : أمسك ورجع عن الإسلام ، وأصله : بلغ الكُدْية : وهى الصخرة ، يقال لمن

يحفر الأرض وتصادفه كدية فيمسك عن الحفر - يقال له - : أكدى ، ثم استعمله العرب فيمن أعطى ولم يتمم العطاء ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره .

التفسير

٣٣ ، ٣٤ - (أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ . وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ)[١] :

هاتان الآيتان وما بعدهما مما يتصل بهما نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على دينه فعيّره بعض المشركين وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ فقال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له أن يتحمل عنه عذاب الله إن أعطاه شيئاً من ماله ، فأعطاه ما كان قد وعده به ثم بخل بباقيه فنزلت .

وقال مقاتل : كان الوليد قد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا) أى : من الخير بلسانه ثم قطع ذلك وأمسك عنه ، وقيل غير ذلك .

ووجه صلة هذه الآيات بما قبلها : أنه - تعالى - لما بين فى الآيات السابقة جهل المشركين فى عبادة الأصنام ، ذكر فى هذه الآيات قصة أحد زعمائهم فى جهله ورجوعه عن الحق .

والمعنى : أفرأيت -أيها الرسول- هذا الذى رجع عن الحق ولم يثبت عليه ، وأعطى قليلا من مدح الإسلام والإقبال عليه ، وقطع العطاء فلم يستمر عليه ، بل رجع إلى شركه ودين قومه .

---

(١) « أفرأيت » الهمزة هنا : للتعجيب من سوء حال الذى تولى ، ورأيت : بمعنى علمت ، وأبصرت .

(أَمْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾
ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(يُنَبَّأْ) : يُعْلم ويُخبر .

(وَفَّىٰٓ) : أتم ما أمر بتبليغه على أكمل وجه فى الوفاء .

(أَن لَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) أن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، أى : أنه ، والوِزْر : الحمل .

(سَوْفَ يُرَىٰ) : سوف يعرض عليه وعلى أهل القيامة ، من : أريته الشىء أى : جعلته يراه .

(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما .

التفسير

٣٥ - (أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ) :

أى : أعند هذا الذى أكدى علم بما غاب عنه من أمر عذاب الآخرة وأهوالها فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، أو معناه : فهو يرى أن ما سمعه من القرآن باطل .

٣٦ - ٣٨ - (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) :

أى : بل ألم يخبر هذا الَّذِى تولى عن الإسلام وأعطى قليلا منه ولم يستمر عليه ، ألم يخبر بتوراة موسى وصحف إبراهيم الذى وفى ماكلف به ؟ فما أمره الله بشىء إلَّا فعله . وما نهاه عن شىء إلَّا تركه - ألم يُخْبَر بما فى هذه الصحف - أن لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى من الذنوب ؟! فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ولا يعاقب إلَّا بذنب نفسه .

وأطلق على النفس لفظ وازرة « حاملة » لأن من شأنها حمل الذنوب ، سواء أكانت مذنبة أم لم تكن مذنبة .

فإن قيل : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من سنَّ سُنَّةَ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فقد دل على أن الإنسان يحمل ذنب غيره ، فالجواب أنه فى ذلك يحمل ذنب إضلاله لغيره الذى هو ذنبه لاذنب سواه ، بالإضافة إلى ذنب نفسه ، أمّا الآخر الذى قَلَّده فإنه يحمل ذنب ضلال نفسه .

وتخصيص صحف موسى وإبراهيم بالذكر دون سائر الأنبياء؛ لأن موسى أقرب أصحاب الشرائع إليهم ، وأن إبراهيم كان رسول الله إليهم ، ولا تزال بقية مما جاء به معروفة بينهم ، أما صحف غيرهما من الأنبياء فإنها لم تكن لها بقية لديهم .

وفى تفسير (أَن لَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) قال الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - : كانوا قبل إبراهيم - عليه السلام - يأْخذون الرجل بذنب غيره ، يأْخذون الولى بالولى - أى : القريب بالقريب - فى القتل والجراحة فيقتل الرجل بذنب أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه ، والزوجة بزوجها ، وزوجها بها وبعبْدِهِ ، فبلغهم إبراهيم-عليه السلام- عن الله تعالى : (أَن لَّاتَزِرُ نَفْسٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : « وفَّى » أى : عمل بماأُمِر به وبلغ رسالات ربه ، قال القرطبى : وهذا أحسن لأنه عام .

ونحن نقول : لاخلاف بينهم وبين ابن عباس فيما قالوه ، لأن ابن عباس لايقصد أنه اقتصر على تبليغهم ذلك ، فإنه بعض ما أمره الله تعالى به ووفاه ، ولذا قال تعالى فى شأْنه :

٣٩ – ٤١ – (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُم يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ) :

أى : وجاء فى صحف موسى وإبراهيم – عليهما السلام – : أن عمل الإنسان سوف يراه حَاضِرُو القيامة ويطلعون عليه ، تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسىء ، أو يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفة أعماله .

وجاء فى هذه الصحف أيضاً أن الإنسان سوف يجزى يوم القيامة على سعيه وعمله الجزاء الأوفى .

(وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(الْمُنتَهَىٰ) المراد به : انتهاء الخلق ورجوعهم إلى الله – تعالى – .

(مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ) أى : من نطفة إذا تصب وتدفق فى الرحم ، يقال : أمْنى الرجل ومنى ، ومعناهما واحد ، وأصل النطفة فى اللغة : الماء القليل ، ثم أطلقت على المنى لقلته .

(النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) : الإحياء بعد الإماتة .

التفسير

٤٢ – (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ) :

أى : أن الخلق ينتهون إلى الله – تعالى – ويرجعون إليه وحده لا إلى غيره ، حيث يحاسبهم فيثيب المحسن ويعاقب المسىء .

وقيل : معناه : أنه - عز وجل - منتهى الأفكار ، فلا تزال الأفكار تبحث فى حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وصفاته انتهى سيرها فلا تفكر فى ذلك وإلا هلكت ، وأيد هذا المعنى بما أخرجه البغوى عن أبى بن كعب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » .

٤٣ - ٤٧ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) :

معنى هذه الآيات : أنه - تعالى - أضحك عباده وسرهم بما يبعث على فرحهم وسرورهم ، وأبكاهم بما يبعث على حزنهم وبكائهم ، ومن ذلك أنه - تعالى - وحده أمات الأحياء فأبكى من حولهم ، وأحياهم حين منَّ عليهم بالذرية فضحكوا عند ميلادهم ، وأنه - تعالى - خلق الزوجين الذكور والإناث من الإنسان وغيره - خلقهم من نطفة إذا تدفقت فى الأرحام ، وأنه - تعالى - سوف يحيى الموتى فى النشأة الأخرى ليحاسبهم ويجزى المحسن بالإحسان ، والمسىء بالإساءة وفاء بوعده الذى لا يخلف ، وذلك لكى لا يتساوى المحسن والمسىء .

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ
أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن
قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾
فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) أى : أنه هو أغنى من شاء وأعطاه القنية ، وهى : ما يبقى من المال .

(الشِّعْرَىٰ) : ألمع كوكب وأضوؤه .

(عَادًا الْأُولَىٰ) : أولى القوم هلاكاً بعد قوم نوح ، وللكلام بقية فى التفسير .

(الْمُؤْتَفِكَةَ) : قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت .

(أَهْوَىٰ) أى : أهواها الله - تعالى - إلى الأرض بعد أن رفعها .

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) : فبأى نعم ربك تتشكك ؟ ! .

التفسير

٤٥ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) :

أى : وأنه - تعالى - هو وحده أغنى من شاء من عباده وأعطاهم القَنية ، وهى ما يبقى ويدوم من الأموال ، كالرياض والحيوان والبناء والتحف ، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله فى قوله -تعالى- : (أَغْنَىٰ) لأن القنية هى أشرف الأموال وأنفسها ، وعن ابن زيد والأخفش : معناهما : أغنى وأفقر ، ووُجِّه ذلك بأَنَّهُمَا جعلا الهمزة للسلب والإزالة فى أقنى ، كما فى أشكى ، أى : أزال شكواه ، وقيل غير ذلك .

٤٦ - (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ) :

الشعرى : كوكب قوى الإضاءة ، ويطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وأُطلق عليها لفظ العبُور ؛ لأنها عبرت الحجرة فلقيت سهيلا ، كذا قيل ، وهما شِعْريان ، الشعرى العبور ، والشعرى الغُمَيصاء ، ويقال : إن الشعرى أكبر من الشمس ، وإنما ترى أصغر منها لأنها بعيدة عنها بُعْدًا كبيرًا فى جو السماء ، ولهذا جاء ذكرها فى الآية ، فكان ذلك من آيات إعجاز القرآن .

وقيل : إنما ذكرت لأن العرب كانوا يعبدون شِعرَى العبور ، لأنها أكبر حجماً من شِعرى الغميصاء ، فقيل لهم : إنه - تعالى - هو رب الشعرى ومالكها ، فهو أحق بالعبادة منها .

قال السُّدِّى : عبدتها حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة ، رجل من خزاعة ، أو هو سيدهم ، واسمه وَجْز بن غالب .

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً ، وسائر النجوم تقطعها طولا ، ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، ولكن هذا الفريق من العرب كان لا يعبدها ويقتصر على تعظيمها .

وجاء فى هامش المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – جاء فيه – أن قدماء المصريين كانوا يعبدونها أيضاً ، لأن ظهورها من جهة الشرق حوالى منتصف شهر يوليو قُبَيْلَ شروق الشمس متفق مع زمن الفيضان فى مصر الوسطى ، أى : مع أهم حادث فى العام عندهم . .

ولما كانت الشعرى لاتظهر قبيل شروق الشمس إلا مرة واحدة فى العام ، فلهذا جعلوا ظهورها أول العام الجديد . انتهى بتصرف يسير .

٥٠ – ٥٢ – (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ . وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ) :

وصف القرآن الكريم عادًا المهلكة بأنَّهَا الأُولى ، والمراد من هذا الوصف : أنَّهَا أُولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح – كما قاله جمهور المفسرين .

وقال الطبرى : وصفت بالأُولى لأن فى القبائل عادًا الأُخرى ، وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وقال المبرد : عاد الأُخرى هى ثمود، وقيل غير ذلك .

والمعنى : وأنه – تعالى – أهلك عادًا الأُولى لتكذيبهم رسولهم وبقائهم على الشرك بالله ، وأهلك ثمودًا فما أبقى أحدًا من كفارهما ، وأهلك كفار قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ، لأنهم كانوا أشد منهما ظلما للحق ولأنفسهم ، وأشد منهما طغياناً ، فإن نوحاً – عليه السلام – مكث يدعوهم إلى الحق ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يؤمن منهم سوى من ركبوا سفينته ، فهم الذين نجوا من الإهلاك بالطوفان .

٥٣ – ٥٥ – (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) :

أى : وأسقط قرى لوط إلى الأرض بعد أن رفعها إمعاناً فى تعذيبهم ، لأنهم كانوا مع

شركهم يأتون الرجال دون النساء ، ولم ينفع فيهم نصح لوط - عليه السلام - فَغَشَّى اللهُ أهلها ما غشى من الحجارة التى رجمهم وغطاهم بها ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ »[1] فبأى نعم ربك تتشكك يأيها الذى أعطى قليلا وأكدى .

(هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) : هذا القرآن منذرٌ لكم من نوع الكتب الأُولى التى أنذر بها الأنبياء .

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) : قربت القيامة الموصوفة فى القرآن بقربها .

(كَاشِفَةٌ) : نفس قادرة على تبيين وقتها ، من الكشف بمعنى التبيين .

(الْحَدِيثِ) أى : القرآن .

(وَأَنتُمْ سَامِدُونَ) : وأنتم لاهون .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٧٤ .

التفسير

٥٦ - (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) :

لفظ (هذَا) يشير إلى القرآن الكريم ، ومعنى الآية : هذا القرآن نذير لكم من جنس الكتب الأُولى التى جاء بها الرسل السابقون ، فإنها أنذرتهم من عذاب الله على شركهم كما أنذركم القرآن ، وبهذا الرأى قال قتادة .

وقيل : إنَّهُ يشير إلى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : هذا النبى منذرٌ لكم ، من جنس الأَنبياء المنذرين قبله ، فإن أطعتموه نجوتم من عذاب الله ، وإن خالفتموه لَحِق بكم ما حلَّ بمكذبى الرسل السابقين .

وهذان الرأيان من أفضل ما قيل فى معنى الآية :

٥٧ ، ٥٨ - (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) :

أى : قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، وقيل : لفظ الآزفة : عَلَمٌ بالغلبة على الساعة .

وقد أخبر الله - تعالى - أن هذه الآزفة ليس لها من غير الله نفس كاشفة ومبينة لوقت وقوعها ، لأَنها من أخفى المغيبات ، فالكشف هنا بمعنى التبيين ، وهذا هو رأى الطبرى والزجاج ، وهذا التفسير موافق فى المعنى لقوله - تعالى - : «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ»[(١)] هو من أحسن ما قيل فى معنى الآية .

والتَّاء فى (كَاشِفَةٌ) لتأْنيث الموصوف المُقَدَّر ، وهو كلمة (نفس) التى ذكرناها فى معنى الآية ، وقيل : إن كلمة (كَاشِفَةٌ) مصدر من المصادر السماعية كالعافية وخائنة الأَعين ، أى : ليس لها من دون الله كشف وتَبْيين .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٨٧ .

٥٩ - ٦٢ - (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) :

الاستفهام فى لفظ (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ) للتوبيخ ، والحديث : ما يتحدث به ، والمراد به هنا : القرآن ، ولفظ (سَامِدُونَ) معناها : لاهون - كما قال ابن عباس - واستشهد عليه بشعر هزيلة بنت بكر وهى تبكى قوم عاد :

ليت عادًا قبلوا الحــق ولم يبــدوا جحودًا

قيل قم فانظر إليهم ثم دَعْ عنك السمودا

وقال الضحاك : سامدون : شامخون متكبرون .

وفى الصحاح : سَمَد سُمُودًا : رفع رأسه تكبرًا ، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقيل غير ذلك .

ومعنى هذه الآيات : أفمن هذا القرآن الذى حدثتكم به تعجبون إنكارًا ، وتضحكون استهزاءً وأنتم لاهون عنه ، غير مقبلين عليه ، فاسجدوا لله واعبدوه ، ولاتسجدُوا لأصنامكم ومعبوداتكم .

سورة القمر

مقاصدها :

تحدثت هذه السورة عن قرب الساعة وإعراض المشركين عن الإيمان بها ، مع أنهم قد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح له وكفرهم بما جاءهم به ، فأغرقهم الله - تعالى - ، ثم عقبته بقوم عاد وتكذيبهم لرسولهم هود - عليه السلام - فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وذكرت بعده قصة ثمود ، وأنهم عوقبوا بصيحة واحدة جعلتهم كهشيم المحتظر ، لتكذيبهم رسولهم صالحاً - عليه السلام - وعقرهم الناقة التي جعلها الله آية لصدقه .

وجاءت بعدها قصة قوم لوط وعقابهم صباحاً بريح تحمل الحصباء ، وتقذفهم بها حتى هلكوا ، لأنهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء مع شركهم .

وتلتها قصة آل فرعون الذى ادعى الألوهية فأغرقه الله مع جيشه الذى تبع بنى إسرائيل وهم هاربون من قتله لهم وتسخيرهم - تبعهم - ليردهم إلى مصر .

وذكرت عقب ذلك أن كفار قريش ليسوا خيراً من هؤلاء المهلكين ، فسيهزمهم الله ويولون الدبر ، وسوف يعذبهم الله فى الآخرة ، وأن عذابهم فيها أدهى وأمر من إهلاكهم فى الدنيا .

وبينت السورة أن كل شىء خلقه الله بقدر ، وما أمره فى الإتيان بالساعة إلا كلمح بالبصر ، وأن كل شىء فعلوه مثبت فى كتب أعمالهم ، يكتبها ملائكة جعلهم الله لكتابة أعمال العباد ، وختمت السورة بقوله - تعالى - : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

تفسير سورة القمر

هذه السورة مكية ، وآياتها خمس وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً
يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾)

المفردات :

(السَّاعَةُ) : القيامة .

(سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) : دائم .

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عندها .

(مُزْدَجَرٌ) : ازدجار ومنع من القبائح .

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) أى : واصلة إلى غاية الإحكام .

(فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ) : فما يفيد المنذرون لهؤلاء ، والنذر جميع نذير ، بمعنى منذر ، وكلمة (ما) فى قوله تعالى : (فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ) إمَّا نافية فتكون حرفاً ، أو استفهامية للإنكار والتوبيخ فتكون اسماً .

التفسير

١ - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) :

هذه السورة تبين مواقف الكفار فى مواجهة الحق مثل التى قبلها ، والمراد من اقتراب الساعة شِدَّةُ قربها ، وذلك بنسبة ما بقى من عمر الدنيا إلى ما مضى منه ، فالباقى منها قليل وإن مضى أكثر من أربعة عشر قرناً بعد نزول هذه الآية ، والله - تعالى - هو وحده الذى يعلم مقدار ما مضى من عمرها منذ إنشاء الخليقة ، فقد يكون ملايين السنين ، وقد جاء من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى ذلك ، روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كادت الشمس تغيب فقال : « ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا ما بقى من هذا اليوم » وما نرى من الشمس إلا يسيرا . ولا صحة لما روى عن كعب ووهب ، وهو أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة ، مضى منها خمسة آلاف وستمائة ، فهذا رجم بالغيب ولم يُرْوَ عن المعصوم - صلى الله عليه وسلم - ولأن الباقى من عمرها على ما قالوا هو أربعمائة سنة ، مع أنه قد مضى بعد نزول الآية أكثر من أربعة عشر قرناً ، وذلك يوضح كذب هذا الخبر .

وانشقاق القمر حقيقة وقعت قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس : (أن أهل مكة سألوه - عليه الصلاة والسلام - أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما) .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرقتين ، فرقة على الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » .

ومن حديثه أيضاً : « انشق القمر على عهد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقال رجل : انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السُّفَّار فأخبروهم بذلك » رواه أبو داود الطيالسى

وفى رواية البيهقى : فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه ، فقالوا : رأيناه : فأنزل الله - تعالى - : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) .

وقد أجمع جمهور المحدثين والمفسرين على أن الانشقاق حقيقة ، قال القرطبى ، ثبت ذلك فى صحيح البخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر ، وأنس ، وجبير ابن مطعم ، وابن عباس - رضى الله تعالى عنهم - ثم قال : وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بَعْدُ ، وهو منتظر ، أى : قرب وقوعه ، يقول الماوردى تقريرًا لعدم وقوعه : إنه إذا انشق ما بقى أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء .

وقيل معناه : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح . ثم قال القرطبى : قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فى رؤيته ، لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - من الله عند التحدى ... [1] إلى آخر ما قاله القرطبى .

ونحن نقول : إنه آية وحقيقة مرئية ، بدليل قوله - تعالى - عقب ذلك ما يلى :

٢ - (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) :

فهذه الآية ناطقة بأنهم رأوا انشقاق القمر ، ووصفوه بأنه سحر مستمر . أى :متتابع ، وهو ظاهر فى ترادف معجزاته - صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف فى تفسير كلمة (مُّسْتَمِرٌّ) فقيل : معناه دائم ، وقيل : معناه ذاهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء وغيرهم ، واختاره النحاس ، وهو يفيد أنهم يتعللون بذهابه تسلية لأنفسهم ، وقال أبو العالية والضحاك معناه : محكم قوى شديد ، من المِرَّة ، وهى القوة ، وقيل غير ذلك ، والمعنى : وإن تُشاهِد قريش علامة وبرهاناً على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - يعرضوا عن الإيمان بنبوته ، ويقولوا : هذا سحر ؛ فإنه لابقاء له ، مع أن هذه الآية من أقوى الأدلة على نبوته ، وإن مثلها كمثل

---

(١) ويجاب أيضا بأن الانشقاق فى وقت الغفلة ، فلم يكن مهتمًا بأمره سوى قريش ، وقد ذهب الناس إلى مضاجعهم فقريش هم الذين رأوه وقت التحدى ، ولأن زمن الانشقاق كان قليلا ، ورؤية القمر فى بلد لاتستلزم رؤيته فى غيره ، لاختلاف المطالع ، فقد يكون القمر مرئيا فى بلد ولكنه لا يرى فى بلد آخر ، لأن الأرض كروية ، إلى غير ذلك مما ذكره الآلوسى ، فارجع إليه فإنه وفى المقام حقه .

انشقاق البحر لبنى إسرائيل حتى عبروا على أرض يابسة ، والماء على أيمانهم وشمائلهم ، لايصيبهم منه شيء ، وكذلك شأن آيات المرسلين ، فهى خارقة للعادة ، لايمكن للبشر أن يأتوا بمثلها ، حتى تكون آية ومعجزة أيدهم الله بها ، للدلالة على صدقهم .

٣ - (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) :

وكذبت قريش هذه الآية ، واتبعوا أهواءهم فى تكذيبهم إياها ، مع أنها واضحة الدلالة على صدقه ، وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، ومن حجتها أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - فسوف يمضى إلى غاية يتبين عندها حقيقته وعلو شأنه ، ولن ينجح عنادهم فى إبطال أمره ، ومنع استقراره .

٤ ، ٥ - (وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) :

أى : وبالله لقد جاء قريشاً فى القرآن من أخبار الأولين وأخبار الساعة ، مافيه ازدجار وانتهاء عمَّا هُمْ فيه من الضَّلال والقبائح . هو حكمة واصلة إلى غاية الإحكام لاخلل فيها « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً »[1] ولكنهم أصروا على الكفر والتكذيب ، فأىُّ إغناء تغنيه النذر عنهم ، وأية فائدة تحصل لهم .

والنُّذُر : جمع نذير ، بمعنى منذر .

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾)

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢ .

المفردات :

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) : فأعرض عنهم .

(الدَّاعِ) الداعى : هو إسرافيل - عليه السلام - وقيل : غيره .

(إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ) النكر : بمعنى المنكر الفظيع ، وهو أهوال يوم القيامة .

(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) أى : ذليلة ، والمراد ذليلة نفوسهم ، لأن خشوع الأبصار ناشىء عن خشوع النفوس ، فهو كناية عنه .

(الْأَجْدَاثِ) : القبور ، وهو جمع جَدَث .

(مُّهْطِعِينَ) : مسرعين مادين أعناقهم .

التفسير

٦ - ٨ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) :

الأمر فى قوله - تعالى - : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) مترتب على ما قبله من عدم إفادة النُّذُر لهم ، ولذا قُرِن بالفاء التى هى لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وكأنه قيل : إذا كانت النذر لا تغنى عنهم ولا تفيد فأعرض عنهم واترك الاهتمام بهم ، والأسى على عدم إيمانهم ، فقد أديت الرسالة ووفيت الأمانة فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

وليس الغرض منه الأمر بترك تبليغ الرسالة لهم ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - ظل يدعوهم إلى الحق قبل الهجرة وبعدها ، حتى آمنوا جميعاً فى العام الهجرى الثامن ، فالغرض منه أن لا يبالى بكفرهم ، وقد عقَّب الله هذا الأمر بوعيدهم بعذاب الآخرة بقوله : « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى : اذكر لهم يوم ينادى المنادى إلى شىء منكر فظيع ، قال الآلوسى : يكنى بالنُّكر عن الفظيع (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم) ذليلة نفوسهم ، يخرجون من القبور كأنهم فى كثرتهم وانتشارهم فى كل مكان - كأنَّهُمْ - جراد منتشر - يخرجون - مسرعين إلى الداعى ، مادين أعناقهم خوفاً وهلعاً ، يقول الكافرون من شدة الهول وسوء المنقلب - يقولون - : هذا يوم صعب شديد . نسأل الله السلامة .

* (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا
فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد
تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) أى : وصفوا نوحًا ـ عليه السلام ـ بالجنون وزجروه عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف .

(فَانتَصِرْ) : فانتقم لى منهم . (بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ) : كثير متتابع ، يقال : همره يهمِره ويهمُره بكسر ميم المضارع وضمها : صبَّه . فهمر وانهمر .

(عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : قد قضاه الله أزلا ، وهو هلاكهم بالطوفان .

(عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) . على سفينة ذات ألواح عريضة ومسامير تثبت بها تلك الألواح ، ودسر جمع دِسار أو دَسْر : وهو المسمار .

(بِأَعْيُنِنَا) : بكلاءة وحفظ منا .

(وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً) أى : أبقينا خبرها أمرا داعيا للعظة والاعتبار .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى : فهل من معتبر بتلك الآية ؟ والأصل مدتكر : أبدلت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال ، وقيل غير ذلك فى أصلها .

التفسير

٩ ـ ١٧ ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، وتفصيل لها ، وبيان عدم تأثرهم بها تقريراً لما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ : (فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) .

والمعنى : كذب قبل أهل مكة قومُ نوح فكذبوا عبدنا نوحاً ـ عليه السلام ـ تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذّب جاء عقيبه منهم قرن آخر مكذب مثله .

وقيل : معنى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) ابتدأت التكذيب ، ومعنى (فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا) أتموه وبلغوا نهايته . أو : لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، والفاء ـ عليه ـ للسببية ، وفى ذكره ـ عليه السلام ـ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له وتشنيع على مكذبيه الذين لم يقتصروا على مجرد التكذيب ، ولم يقنعوا به بل دفعهم حقدهم وسوء طويتهم إلى أن ينسبوه إلى الجنون حيث قالوا عنه : إنه مجنون ؛ يقول مالا يقبله عاقل ، وزجروه عن تبليغ الرسالة بأنواع الأذية والتخويف ، والوعيد الشديد فقالوا له : « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ »[1] .

ولما استحكم يأسه من استجابتهم له بعد أن دعاهم ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وعلنا لجأ إلى ربه فدعاه قائلا : (أَنِّى مَغْلُوبٌ) من جهة قومى ، مالى قدرة على الانتقام منهم (فَانتَصِرْ) لى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١٦ .

بإعانتى عليهم وتمكينى من الإيقاع بهم ، وذلك بعد أن صبر على إيذائهم له طويلا . روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وقد استجاب - سبحانه وتعالى - لدعائه بما أشار إليه قوله - جل وعلا - : (ففتحنا أبواب السماء - أى : السحاب - بماء منهمر) أى : كثير منصب ، وهذا كناية عن كثرة الأمطار وشدة انسيابها من السحاب حتى كأنها أنهار تفتحت بها أبواب السماء ، وإلى ذلك ذهب الجمهور ، ومما يدعو إلى العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا جزاء تمردهم والتمادى فى تكذيبهم للرسل ، وكما فتحت أبواب السماء بماء منهمر استجابة لدعوته - عليه السلام - كذلك فجرت الأرض عيونا بأن جعلت كلها كأنها عيون متفجرة ، وهذا أبلغ فى الدلالة على كثرة الماء وغزارته . وقد اشتد بهم الهول ، وعظم الفزع حينما التقى ماء السماء وماء الأرض على حال قدرت وسويت ، وهى قدر ما أنزل على قدر ما أخرج ، كما قال - سبحانه - : (فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، أو المعنى : فالتقى الماء على أمر قدره الله فى اللوح المحفوظ وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان . وهذا المعنى خير من سابقه وأظهر .

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) أى : وحملنا نوحا ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح عريضة شد بعضها إلى بعض بمسامير ، وقال الليث : الدسار : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة ، ولعله بعض الحشو الذى يوضع بين الألواح ، ثم يطلى بالقار ليمنع دخول الماء . (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ) وقدرنا لهذه السفينة أن تجرى فى ذلك الماء المتلاطم الأمواج بحفظنا ورعايتنا وجعلنا ذلك جزاء وثوابا لنوح - عليه السلام - ، لأنه كان نعمة ورحمة لقومه كفروها وجحدوا فضلها . وقرىء : جزاء لمن كان كَفَرَ ، بالبناء للفاعل ، أى : الإغـراق جزاء للكافرين (وَلَقَـد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً) أى : أبقينا خشب السفينة على الجودى زمنا طويلا حتى رآها أوائل هذه الأمة كما روى عن قتادة والنقاش ، أو أبقينا خبرها أو جنسها بإبقاء السفن ، كقوله - تعالى - : « وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ »(١) . وذلك للعظة والاعتبار . وجوز أن يكون الضمير فى

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

قوله : (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً) للفعلة التى فعلناها ، وهى إنجاء نوح ومن معه وإهلاك الكافرين « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى : فهل من متعظ يتعظ ويعتبر بتلك الآية الجديرة بالاعتبار والاتعاظ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ) استفهام تعظيم وتعجيب ، بمعنى كان عذابى الواقع بهم وإنذارى لهم على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف ، وذلك لتكذيبهم رسلى وإنكارهم آياتى .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) جملة قسمية وردت فى آخر هذه القصة والقصص الثلاث التى تليها[1] تقريرًا لمضمون ما سبق من قوله –تعالى– : (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ، ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار ، أى : وتالله لقد سهلنا هذا القرآن على قومك حيث أنزلناه بلسانهم وجمعنا فيه أنواع المواعظ الشافية ، والعبر الزاجرة ، والوعد والوعيد للتذكر والاتعاظ . ومع كل هذه الدوافع الداعية إلى الاهتداء أعرضوا عنها وضلوا ضلالًا بعيدًا ، ويشير إلى ذلك قوله –تعالى– :(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى : فلا يوجد فى قريش من يتعظ ويتذكر ، فالاستفهام هنا للإنكار والنفى على أبلغ وجه وآكده . وقيل فى معنى هذه الآية : ولقد سهلنا القرآن للحفظ وأعنَّا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟

روى أن أهــل الأديان لايتلون كتبهم مثل التوراة والإنجيل والزبور إلا نظرا ، ولا تحفظ فى الصدور ، وعلى الألسنة كالقرآن ، وعن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

(١) قصة عاد ، وقصة ثمود ، وقصة قوم لوط .

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(رِيحًا صَرْصَرًا) أى : ريحاً باردة ،وقيل : هى الشديدة الصوت ،قال صاحب القاموس : وريح صر وصرصر : شديدة الصوت ، أو الباردة .

(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) أى : فى يوم شؤم عليهم وشر استمر فيهم بنحوسته وعذابه حتى الهلاك .

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) أى : أصول نخل بدون فروع ،منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ، يقال : قعر النخلةَ ــ كمنع ــ : قلعها من أصلها فانقعرت . والنخل : اسم جمع يذكر ويؤنث .

التفسير

١٨ ــ ٢٢ ــ (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَل مِّن مُّدَّكِرٍ) :

شروع فى قصة أخرى ، ولم تعطف ،وكذا ما بعدها من القصص إشارة إلى استقلال كل قصة فى القصد والاعتبار والاتعاظ ، ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم قصدًا إلى الاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب ، وقوله ــ سبحانه ــ فى بدء القصة : (فَكَيْفَ كَانَ

عَذَابِي وَنُذُرِ) لتوجيه السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى عليهم فى تعذيب عاد قبل ذكره كأنه قيل : كذبت عاد ، فهل سمعتم؟ أو فاسمعوا يا أهل مكة كيف كان عذابي وإنذاري لهم بالعذاب . ثم بين ما أجمل فى عقابهم بقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) أى : أرسلنا عليهم ريحاً باردة ـ كما روى عن ابن عباس وقتادة والضحاك ـ وقيل : أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الصوت ، وكان ذلك فى يوم شؤم مستمر ، والمراد به مطلق الزمان لقوله ـ تعالى ـ : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ »[1] وقوله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً »[2] وقد استمر هذا الشر حتى أهلكهم جميعاً ، ولم تبق منهم باقية ، وقد روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وأمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ، كأنهم أصول نخل بدون فروع منقلع عن مغارسه وملقى على الأرض ، وقد شبهوا بأعجاز النخل لطول قاماتهم (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تهويل وتعظيم للعذاب والنُّذُر ، وتعجب من أمرهما بعد بيانهما . فليس فيه شائبة تكرار مع ما سبق فى هذه القصة .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..) الآية ، أى : سهلناه للتذكر والاتعاظ ، أو للحفاظ . وقد سبق .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾)

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١٦ .

(٢) سورة الحاقة ، من الآية : ٧ .

المفردات :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) أى : بما سمعوه من نبيهم من الإنذارات والمواعظ .

(وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) أى : واحدًا من آحادهم لامن أشرافهم .

(لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) أى : لنى بعد بين عن الحق . وسُعُر :جمع سعير وهى النَّار المشتعلة أو الجنون .

(بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) أى :بل هو شديد الكذب متكبر بطر ، والبطر :دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها .

التفسير

٢٣ ـ ٢٦ ـ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) :

استئناف لبيان قصة صالح ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التى سمعوها من نبيهم ، أو كذبوا بالرسل ـ عليهم السلام ـ فإن تكذيب أحدهم وهو صالح تكذيب لجميعهم لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وعلى هذا فالنذر جمع نذير ، بمعنى منذر ، ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة دونهم فقالوا إنكارًا له :أبشرًا من جنسنا نتبعه ، متفردًا ليس له أتباع ولا نصراء يشدون أزره ويدفعون عدوه ،أو واحدًا من آحادنا لا من أشرافنا كما يفهم من التنكير ، فإذا اتبعناه مع كونه بشرًا واحدًا ونحن أمة جمة إنا إذا اتبعناه وهو على هذا الحال لنى بُعْد واضح عن الصواب ، وجنون بيِّن لأن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل ،أو كنا فى ضلال وسعر ، أى :نيران ، جمع سعير ، وهى النار ، يقصدون المبالغة ، وروى أن صالحًا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ،أى :نيران ،فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذًا كما تقول ،ثم زادوا فى إنكارهم وجحدهم لرسالته وتكذيبهم له حيث قالوا :أألقى عليه الكتاب والوحى من بيننا وفينا من هو أحق وأولى منه بالنبوة؟!وهو استفهام معناه الإنكار ،ومرادهم

أن الأمر ليس كذلك، بل هو متجاوز الحد في الكذب شديد البَطَر. وهو على ما قاله الراغب: دَهَش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها، ويقاربه فى المعنى: الطرب، وهو خفةٌ أكْثَرُ ما تعترى الإنسان فى الفرح، والتعبير بالإلقاء يتضمن العجلة فى ادعائه النبوة دون تدرج، وقوله تعالى: (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) حكاية لما قاله سبحانه لنبيه صالح ـ عليه السلام ـ وعدًا له، ووعيدًا لقومه، أى: سيعلمون عن قريب عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على ما ادَّعاه، أهو صالح أم من كذبه؟ والمراد أنهم سيعلمون لا محالة أنهم هم الكذابون الأشرون وقد أُورِدَ ذلك مورد الإبهام إيماء بأنه لا يكاد يخفى.

والإتيان بالسين فى قوله: (سَيَعْلَمُونَ) لتقريب مضمون الجملة وتأكيده.

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات:

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ) أى: مخرجوها وباعثوها من الصخرة الملساء (فِتْنَةً لَّهُمْ): ابتلاء واختبارًا.

(فَارْتَقِبْهُمْ): فانتظر ما يؤول إليه أمرهم.

(وَاصْطَبِرْ): اصبر على أذاهم حتى يأتى أمر الله.

(كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ) : كل حصة ونصيب من الماء يحضرها من كانت له .

(فتَعَاطَى فَعَقَرَ) أى : فتناول السيف فعقر الناقة بضرب قوائمها . قيل : لا يطلق العقر فى غير ضرب القوائم ، وربما قيل : عقره : إذا نحره .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : هى صيحة جبريل – عليه السلام – .

(كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) أى : كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، وقيل : الهشيم : ما تساقط وتفتت من الشجر الذى أقيمت به الحظيرة وهى التى تقيمها العرب وأهل البوادى للمواشى والسكنى من القصب وأغصان الشجر .

التفسير

٢٧ – ٣٢ – (إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ . فَنَادَواْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

استئناف لبيان حصول الموعود به حتمًا .

والمعنى : إنا باعثو الناقة ومخرجوها ناقة عشراء من الصخرة الصماء كما سألوا – إنا باعثوها – لتكون حجة وآية على صدق صالح – عليه السلام – فيما جاءهم به واختبارًا لهم ، وقد سألوا ذلك على سبيل الاستهزاء ، فانتظرْ يا صالح ما يؤدى إليه أمرهم وتبصَّر عواقبهم . ولا تعجل حتى يأتى أمر الله وهو ناصرك عليهم ، وأعلمهم بأن ماء البئر التى لهم يكون بينهم وبينها كل نصيب وحظ منه محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضره الناقة يوم وردها ، ويحضرونه يوم وردهم . وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها . قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا فى نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئًا واستمروا على هذه الوتيرة من القسمة وقتًا ، ولكنهم ملُّوها وأرادوا التخلص منها ، فنادوا صاحبهم وهو قُدار بن سالف ، قال ابن إسحاق : فكمن لها فى

أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فخرت ، ورغت رغاء شديدا تحذر سقبها[1] من بطنها ثم نحرها ، ويشير إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : (فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) أى : فاجترأ على الأمر العظيم أشقى قومه غير مكترث به فأحدث العقر بالناقة وتناوله. وقيل : فتعاطى الناقة فعقرها أو السيف فقتلها . والتعاطى :تناول الشىء مطلقًا أو بتكلف، وإنما قيل فى آية أخرى : « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا »[2] بإسناد العقر إليهم جميعًا لرضاهم به ، أو لأنه بمعونتهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ » لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره ،وقد مر نظيره . وقد أشار التنزيل إلى تنكيل الله بهم، وإهلاكه إياهم فقال : (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً) هى صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ فى طرف منازلهم ، فأهلكهم الله بها فصاروا هشيمًا مفتتا كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، أو كالورق المتساقط مما يعمل به صاحب الحظيرة حظيرته من قصب وأشجار ، وصاحب الحظيرة هو المحتظر . قال ابن عباس : المحتظر :هو الرجل الذى يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك :فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . والحظيرة (الزريبة) التى يقيمها العرب وأهل البوادى للسكنى ولمنع البرد والسباع عن الغنم والإبل ،وهى من الحظر وهو المنع ، ثم أقسم سبحانه على أنه سهل القرآن للتذكر والاتعاظ .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) : إنكار ونفى للمتعظ من قريش على أبلغ وجه . وقد سبق مثل ذلك مفصلًا .

---

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الشمس من الآية : ١٤ .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا
إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) أى : ريحًا شديدة تثير الحصباء وهى الحصى الصغيرة .

(نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ): هو مابين آخر الليل وطلوع الفجر حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

(فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أى : شكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه .

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ): أرادوا منه تمكينهم ممن كان عنده من الملائكة فى هيئة الأضياف طلبًا للفاحشة ، والضيف يطلق بلفظ واحد على الواحد وغيره لأنه مصدر فى الأصل ويجوز المطابقة فيقال : ضيف وضيفة وأضياف وضيفان .

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) أى : سوَّينا أعينهم كسائر الوجه لايرى لها شق .

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم العذاب وقت الصباح فى البكرة وهى أول النهار .

التفسير

٣٣ - ٤٠ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُواْ عذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

الآيات استئناف أخبر به - سبحانه - عن قوم لوط بأنهم ساروا على سنن المكذبين لرسلهم من الأقوام الماضية ، فعاقبهم بأن أرسل عليهم ملكًا يرميهم بالحصى والحجارة ،أو أرسل عليهم حاصبًا وهو اسم للريح الشديدة أو الباردة التى كانت ترميهم بالحصباء وهى الحصى أو ترميهم بالحجارة كما قال أبو عبيدة ، وقال ابن عباس : هو ما حُصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح ، وعليه قول المتنبى :

مستقبلين شمال الشام تَضْرِبنــا بحاصب كنديف القطن منثور

بمعنى أرسلنا عليهم حصى وحجارة تنزلا من السماء فى الريح ، وحينما نزل بهم عذاب الله أهلكهم[1] إلّا آل لوط . قيل :المراد بهم : ابنتاه ومن آمن معه ، وقيل : المراد ابنتاه لأنه لم يكن على دينه أحد سواهما حتى ولا امرأته التى أصابها ما أصاب قومها ؛ هؤلاء الآل نجيناهم بسحر من الأسحار حينما خرجوا آخر الليل فى الوقت الذى يختلط فيه سواد الليل ببياض النهار ،وكانت تنجيتنا للوط وابنتيه أو له ولابنتيه ولمن آمن معه إنعامًا منا عليهم ، ومثل ذلك الجزاء الكريم نجزى من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة .

ثم حكى - سبحانه - موقف لوط منهم وموقفهم منه قبل حلول عذاب الإبادة بهم فقال تعالى : (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا) أى :أخذتنا الشديدة لهم بالعذاب ، فما التفتوا إلى ذلك ولا اهتموا به ، بل شكوا فيه ، وكذَّبوا بكل ما أنذرهم به . كما حكى - سبحانه - أيضا ما وقع منهم من أنهم راودوه عن ضيفه من الملائكة الذين حضروا إليه فى صورة شباب مُرْد حِسَان محسنة من

---

(١) وقد فصلت بعض أنواع العذاب التى عوقبوا بها فى سورة الحجر .

الله فأضافهم لوط - عليه السلام - فبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بالأضياف فأقبلوا يُهرعون من كل مكان طلبا للفجور بهم ، فطمس الله أعينهم ،وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وكان لوط يدفعهم ويمانعهم دون أضيافه ، وروى أن جبريل - عليه السلام - استأذن ربه - سبحانه - ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عميانًا مع بقاء أبصارهم فلم يروهم ولم يهتدوا إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط - عليه السلام - فخرجوا يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطًا بالانتقام منه فى الصباح . وقيل : الطمس مجاز عن حجب الإدراك ، وذلك أنهم حينما دخلوا المنزل ونظروا لمن فيه لم يروا شيئًا فجعل ذلك كالطمس فعُبِّر به عنه .

وقلنا لهم على ألسنة الملائكة : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ويراد من الأمر الخبر ، بمعنى فأذقناهم عذابى الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - وهو الطمس لأنه من جملة ما أنذروه من العذاب ، أما عذاب الإبادة الذى أهلكوا به فقد صبحهم بكرة كما قال تعالى : (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم فى الصباح أول النهار كما تشير إلى ذلك (بُكْرَةً) وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها زيادة ، بل هى كالتأكيد . وكان هذا العذاب دائمًا مستقرًا لا يفارقهم ولا ينفك عنهم حتى يسلمهم إلى النار فى الآخرة ، وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهى إلى الإبادة ، وقوله - تعالى - : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) حكاية لما قيل لهم من جهته - تعالى - تشديدًا للعذاب الواقع بهم ، وفائدة تكرير (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ، وتكرير (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ...) الآية . فى هذه القصص أن يجدد المشركون عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارًا واتعاظًا . وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه . وهذا حكم التكرار فى قوله - تعالى - : « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » عند كل نعمة عدها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل أوان .

(وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(آلَ فِرْعَوْنَ) المراد بهم : القبط وهم أهله وشيعته بمصر .

(النُّذُرُ) : الإنذارات المتكررة ،أو النذر : موسى وهارون إطلاقًا للفظ الجمع على الإثنين .

(عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) : لا يغالب ولا يعجزه شىءٌ .

التفسير

٤١ ـ (وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ) :

صُدِّرت قصة آل فرعون بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الاعتناء بشأْنها لعظم ما فيها من الآيات ، وهول ما لاقوه من العذاب ، وقوة إيجابها للاتعاظ ،والاكتفاء بذكر آل فرعون عن ذكره للعلم بأَن نفسه أولى بذلك ، لأنه رأس الفساد وقمة الضلال .

والمعنى : وبالله لقد جاء آل فرعون الإنذارات المتكررة بما سيلقونه من عذاب ونكال أو فقد جاءهم الرسل يوسف وغيره إلى أن جاء موسى وهارون ، وقد كان منهم ما حكاه الله بقوله :

٤٢ ـ (كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) :

هذا استئناف مبنى على حكاية مجىء النذر ،كأنه قيل : فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : (كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا) أى : بمعجزاتنا الدالة على توحيدنا ، ونبوة أنبيائنا ،فإن تكذيب البعض تكذيب للكل ،أو المراد بالآيات كلها معجزات موسى ـ عليه السلام ـ وهى

الآيات التسع : العصا واليد والسنون والطمسة والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وكان جزاؤهم أن قهرناهم بسبب تكذيبهم فأخذناهم أخذ عزيز لا يغالب ولا يدافع ، مقتدر على الانتقام منهم وفق إرادته لا يعجزه شيء عن تنفيذ ما يريد .

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ) أى : من الكفار السابقين مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون .

(أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ) أى : ألكم براءة وسلامة من العذاب فى الكتب المنزلة على الأنبياء .

(وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) أى : ينصرفون منهزمين ، ويراد من الدبر الأدبار .

(أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) أى : فى أقصى غاية الفظاعة من الداهية ، وهى الأمر الشنيع الذى لا يهتدى للخلاص منه ، وفى نهاية المرارة التى لا يستساغ احتمالها ، ولا يتسنى الصبر عليها .

التفسير

٤٣ - (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ) :

الاستفهام للإنكار ومعناه النفى .

والمعنى : أكفاركم يا أهل مكة أو يا أمة العرب أقوى وأشد وأكثر عددا أو أقل كفرًا

وعنادًا وأقرب طاعة وانقيادًا من كفار الأمم المعدودين الذين أهلكوا بسبب كفرهم، وهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وآل فرعون- أكفاركم خير من أولئكم - ليكون ذلك سندًا وحجة لهم من أن يحل بهم مثل عذاب السابقين؟ ولأن الاستفهام فى قوله : « أَكُفَّارُكُمْ ... » إلخ إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل : ليس كفاركم خيرًا من أولئك الكفار فى الدنيا وزينتها ولا ألين منهم شكيمة فى الكفر والعصيان، بل هم دونهم فى القوة وغيرها مما تستدعيه مباهج الحياة ، وأسوأ حالًا منهم فى الكفر والعناد، وقد أصاب من هم أقوى منكم ما أصابهم فلم لاتخافون أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم من العذاب الذى أهلكهم ، وتركهم أثرًا بعد عين مع أنكم دونهم قوة وبأسًا ، وأكثر منهم كفرًا وعتوًّا .

وقيل : أكفاركم ،ولم يقل أأنتم، للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم .

(أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ) : إضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر ،فكأنه قيل : بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصى فيما نزل من الكتب على الأنبياء أو فى اللوح المحفوظ كما يرى ابن عباس ، فلذلك تصرون على ما أنتم عليه ولا تخافون .

٤٤ - (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ) :

إضراب وانتقال إلى وجه آخر من التبكيت ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ،وحكاية قبائحهم لغيرهم .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء الكفار - واثقين بشوكتهم وغلبتهم على جند الله -: نحن أولو حزم وعزم أمرنا مجتمع متحد لايضام ولايرام ،أو منتصر بمعنى ممتنع على محمد وصحابته أو نحن جمع منتصر ،أى : متناصر ينصر بعضنا بعضًا ويعاونه ، وروى أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر فتقدم الصف وقال : نحن نَنْتَصر اليوم من محمد ، أى :نغلبه وننتقم منه ، وكان الظاهر أن يقال : نحن جميع منتصرون إلَّا أنه أفرد نظرًا للفظ جميع فإنه مفرد لفظًا جمع معنى ، ورجح جانب اللفظ لخفة الإفراد مع رعاية جانب الفاصلة .

٤٥ - (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) :

رد لقولهم السابق ، والإتيان بالسين للتأكيد .

والمعنى : سيهزم جمع مشركى مكة ،أو الكفار لا محالة ويولون الأدبار منهزمين .

قال سعيد بن جبير : قال سعد بن أبى وقاص : لما نزل (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - يثب فى الدرع ويقول : « اللَّهُمَّ إن قريشًا جاءت تحادُّك ، وتحادّ رسولك بفخرها فأَحِنْهم - أى : أَهْلِكْهُم - الغداةَ . ثم قال : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبى - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن غيب فكان كما أخبر . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . فالآية مكية . وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة قال : أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل يوم بدر (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وقال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله أىّ جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرتُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى آثارهم مُصْلِتًا بالسيف [1] وهو يقول : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) . فكانت ليوم بدر ، وقيل : ويولون الدبر ولم يَقُل :الأدبار إما لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ، أو لإرادة أن كل واحد منهم يولى دبره ،وقد كان كذلك يوم بدر وغيره .

٤٦ - (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) :

إضراب انتقالى لبيان أن ما وقع لهم ببدر ليس نهاية عذابهم ، بل الساعة موعد عذابهم الأصلى ، وهذا من طلائعه وبوادره ، وعذاب الساعة أشد وأنكى مما لحقهم يوم بدر من الهزيمة والقتل والأسر ، و « أدهى » مبالغة : من الداهية ،وهى الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه ، و « أمَرُّ » مبالغة فى شدة المرارة عند الذوق على سبيل الاستعارة لصعوبتها على النفس ، وإظهار الساعة فى موضع الإضمار لشدة تهويلها وبث الحزن فى نفوسهم .

(١) مسكا به : وهو يقاتلهم .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ
بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(فِى ضَلَالٍ) أى : فى بعد عن الحق فى الدنيا .

(وَسُعُرٍ) أى : واحتراق فى نيران جهنم . وسعر : جمع سعير .

(ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) أى : يقال لهم : ذوقوا آلام سقر ، و « سقر » علم لجهنم ولذلك لم تصرف .

(خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) أى : مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه .

التفسير

٤٧ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) :

أى :إن المجرمين من الأولين والآخرين فى بعد عن الحق فى الدنيا وفى نيران مسعرة فى الآخرة لما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفِرَق ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فى خسران وجنون .

٤٨ - (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) :

أى : يوم يسحبون فى النار على وجوههم يقال لهم - تقريعًا وتوبيخًا - : ذوقوا أيها المكذبون مس سقر ،بمعنى قاسوا حرها وألمها ، وهو المراد من المس فإنه سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مَسَّ سَقَرَ) كقولك : وجد مس

الحمى وذاق طعم الضرب ، لأن النار إذا أصابتهم بحرها ، ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم بذلك مسًا ، والكلام على المجاز .

٤٩ - (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) :

أى : إن كل شىء من الأشياء خلقناه مقدرًا بقدر معلوم اقتضته الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، أو مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه قد علمنا حاله وزمانه . وحَمْل الآية على القَدَر الذى يقابل القضاء هو المأثور عن كثير من السلف ، وروى الإمام أحمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت . وقال أبو ذر - رضى الله عنه - : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ؟ فنزلت الآية (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). فقالوا : يا محمد ، يَكْتب علينا الذنب ويعذبنا؟ قال : أنتم خصماء الله يوم القيامة .

وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلَّا من كافر ، ثم أكَّدَ هذا بقوله : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شىء بقدر .

وسمعت ابن عمر يقول : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : كل شىء بقدر حتى العَجْز والكَيْس ، أو الكَيْس والعجز . وهذا إبطال لمذهب القدرية[1] والآية من باب (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وهذا هو المقصود من قوله - تعالى - : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

---

(١) الذين يقولون : لا قدر وأن الخير والشر بأيدينا .

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾
فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى : ما أمرنا إلا كلمة واحدة ، وهى قول الله –تعالى– : كُنْ (كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) فى السرعة واليسر ؛ لأن اللمح : النظر بسرعة ، وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ) : أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة ، أو أتباعكم .

(وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتب الحفظة .

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) أى : مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، يقال : سطره يسطُره سطرًا : كتبه ، واستطر مثله .

(فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ) أى : فى جنات وضياء ، ومنه النهار ؛ لضيائه .

(فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ) : فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة .

(عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) أى : عند مليك عظيم الملك كامل القدرة ، يفعل ما يشاء .

التفسير

٥٠ - (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) :

أى : وما شأننا إلّا فعلة واحدة على نهج لا يختلف وتيرة لا تتعدد وهو الإيجاد بلامعالجة ومشقة ، أو : وما أمرنا فى خلق الأشياء إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ،فإذا قصدنا شيئاً نريد إيجاده قلنا له : كن ،فيكون . وهذا الأمر الصادر منا فى اليسر والسرعة كلمح بالبصر لأن اللمح هو النظر بخفة وسرعة على قدر ما يلمح أحدكم ببصره ، والمراد : التقريب للعقول فى سرعة تعلق القدرة بالمقدور وفق الإرادة الأزلية . وقيل :هذا فى قيام الساعة ،فهو كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] .

٥١ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم فى الكفر والضلال من الأمم السابقة ، (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى :من متعظ يتعظ ويعتبر بذلك؟ بمعنى أنه لا معتبر ولامتعظ من قريش حيث بالغوا فى الإعراض فلا يسمعون ولا يبصرون .

٥٢ - (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) :

أى : وكل شىء مفعول فى الدنيا لهؤلاء الكفار من النظراء والأتباع مكتوب عليهم على التفصيل ثابت فى ديوان الحفظة . وأجمعت القراء على رفع كلمة (كل) فى الآية ليستفاد منها المعنى المراد ، وهو أن كل ما فعلوه من الكفر والمعاصى مكتوب فى صحف أعمالهم صغيرًا كان أو كبيرًا .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٧٧ .

٥٣ - (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) :

أى : وكل صغير وكبير مِن الأعمال كما روى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .. وقيل : من الأعمال ومن كل كائن إلى يوم القيامة ، كل ذلك مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله مثبت فيه . ومسطور من السطر بمعنى الكَتْب . وقال صاحب اللوامع :يجوز أن يكون من طرّ النبات والشارب : ظهر ، وعليه يكون المعنى : وكل صغير وكبير ظاهر فى اللوح مثبت فيه .

٥٤ ، ٥٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) :

ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله - تعالى - :(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) إلخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترغيب والترهيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) الآية . .

والمعنى : إن الذين اتقوا الله فابتعدوا عن الكفر والمعاصى ، فى جنات عظيمة الشأن رفيعة المقدار ، وأنهار لها صفاؤها وتدفقها ، وأفردت الأنهار اكتفاء بالجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسير النهر بالسعة ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : بما يعمهما .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : ونَهَر ،أى :فى نور وضياء ،وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه . وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، أى : أنهم لا ليل ولا ظلمة عندهم فى الجنات .

وكما أنهم فى جنات ونهر فهم فى مجلس صدق ، ومكان مرضى . قال جعفر الصادق - رضى الله عنه - : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق وهو المقعد الذى يصدق الله - تعالى - فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح لهم - عز وجل - النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد لإرادة الجنس ،هذا المجلس عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شىء فى الكون إلا وهو تحت ملكوته - سبحانه - ما أعظم شأنه ، ويشير إلى ذلك الإتيان بصيغة المبالغة فى (مَلِيكٍ)

والتنكير فيه وفى (مُقْتَدِرٍ) كما يشير إلى أن قربهم منه-سبحانه-بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث يتحقق لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان ، وتكل دونه الأذهان فالعندية عنده- جل شأنه- عندية منزلة وكرامة لامسافة ولامماسة .

قال عبد الله بن بريدة :روى أن رسول الله قال : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الله - تبارك وتعالى - فيقرأون القرآن على ربهم ، وقال ثور بن يزيد عن خالد بن معدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون :يا أولياء الله انطلقوا ، فيقولون :إلى أين؟ فيقولون:إلى الجنة ،فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا فيقولون : فما بغيتكم؟ فيقولون :مقعد صدق عند مليك مقتدر.وفى رواية فيقولون : بغيتنا المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فإذا أنا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال :أيها الممتلىء قلبه (فَرَقًا) لا تفرق ،أى :لاتفزع . وقل :اللهم إنك مليك مقتدر ،ماتشاء من أمر يكون ثم سل ما بدا لك قال : فما سألت الله-تعالى-شيئاً إلا استجاب لى ، وأنا أقول :اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون ، فأسعدنى فى الدارين ، وكن لى ولا تكن علىّ ،وانصرنى على من بغى علىّ ، وأعذنى من همّ الدَّيْنِ وقهر الرجال وشماتة الأعداء .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب١٦٧٩ / ١٩٨٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٤٧٨ س ١٩٨٨ - ٤٠٠٠ ٢٥